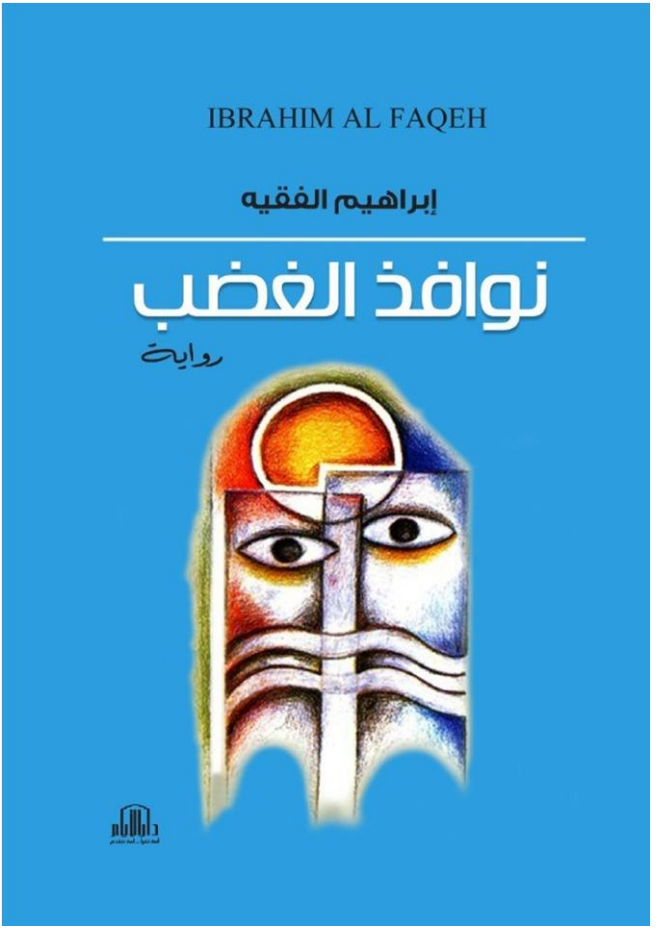

نوافذ الغضب

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١٩/ ٧/ ٣٨٠٦)

٨١٣.٠٣

الفقيه، إبراهيم ذيب

نوافذ الغضب/ إبراهيم ذيب الفقيه .ـ ط٢ .ـ عمان : دار الأيام للنشر

الطبعة الثانية 2020

عمّان- الأردن

دار الأيام للنشر والتوزيع
عمان – ش. الملك حسين – وسط البلد أول طلعة جبل الحسين- بجانب سرفيس جبل الحسين خط 9
ص. ب 925636 – العبدلي 11190 الأردن
هاتف : 4633362 - 6 - 00962 فاكس: 4633352 - 6 - 00962
جوال : 707630- 795- 00962 - 509925-797- 00962
E-mail: salah_tellawi@yahoo.com
alayamdar@gmail.com

نوافذ الغضب

إبراهيم الفقيه

إلى أرواح الشـهداء..
وإلى بسطاء الناس الذين سطروا أهازيجاً للبطولة
في نسـيج موّال العودة إلى الوطن الجريح..
أهدي "نوافذ الغضب"

النافذة الأولى

ذاكرة مستباحة

غريبة ذاكرة الإنسان، أشياء كثيرة مهمة لا تتذكرها، وأشياء تافهة لا تنساها وتتعرف عليها بسهولة.. وكم من الأشياء حفرت الذاكرة، كما يحفر محراث الفلاح الأرض.

في الذاكرة حروب طويلة، هزائم متتالية، مذابح، خيبات وطنية متكررة، أحلام قومية مفلسة، صراخ، قبور جماعية، صور حزينة وباهتة، أُطُر فارغة، وخيالات ضبابية تلوح في الأفق كبريق نجم بعيد، تئن وجعاً وتحرق الفؤاد .

جيوب الذاكرة تحتضن الكثير من الأصدقاء ممن استشهدوا أو رحلوا قسراً وماتوا قهراً، منهم مَن قرأتُ خبر نعيه في صحيفة، ومنهم من لم أعرف بوفاته إلا بعد أشهر أو سنوات.. وقليل منهم من قمت بتشييع جنازته.. أما الأحياء فقد أثقلتهم الهموم ومضوا إلى المجهول.. باعوا ما يملكون واشتروا بقيمته ذكريات حزينة.. تجعّدت وجوههم، تهاوى ما في صدورهم وانهار، وصمودهم الذي كان، أصبح غباراً تذروه الرياح.. كانوا يفرون من الموت

إلى الموت لاهثين وراء قضيتهم المصيرية، غير عابئين بمصائرهم، يُغنّون للحياة ويموتون بصمتٍ غرباء.

يتسع مجال الذاكرة وتتسارع دائرة الأحداث.. تمتد وتتطاول حتى تصير نهراً، طوفاناً يغرق الناس والأشياء والمدن، ثم تتراجع الى لبنة البداية..

***

الوطن بؤرة العين والروح، الهمّ المتواصل والقلق المشروع، وبيروت نقطة اللقاء والتجمع.. مرايا الليل تحاصر ذاكرتي، وأشاهد نفسي في محيط جامعة بيروت العربية.. أذرع شارع الفاكهاني، أتظاهر مع الجماهير ضد المذابح التي يتعرض لها أبناء المخيمات المهجّرين عن الوطن.. أشارك في الأمسيات السياسية التي تلهب المشاعر وتثير الحماس، وتُشعر المرء بعد انقضاء أمسيته، أنه عائد الى وطنه.

أحداث كثيرة لها ايقاعات خاصة تتسارع وتقتحم ذاكرتي.. سهرات طويلة، ندوات في بيوت المؤازرين، يشارك فيها قادة فكر وقادة تنظيمات، عسكريون وسياسيون، صبايا ونساء فاتنات يملأن الجو عطراً بأنوثتهن، ويضفن نوراً سحرياً يغمر المكان بجوّ غريب يعشي العينين.. جُلّهم يتحدثون عن الحرية والنضال والتحرير، يُبدعون شِعراً وكلاماً منمّقاً، ويحوّلون الهزائم إلى انتصارات.

تحاصرني أشرعة الليل، وأرى نفسي وسط عالم ضبابي من جديد.. ما زلت أذكر كيف نبتت الثورة في عروقي وفي دهاليز عمري السرية، أذكر كيف عشت في الأردن قبل نكسة حزيران مدة طويلة، هائماً على وجهي في الشوارع، بعد أن أنهيت دراستي الثانوية،أطرق أبواب الدوائر وأسأل عن عمل، ولافتات معلّقة عند الأبواب تعلن أن "لا وظائف شاغرة".. أتذكر زملاء الدراسة بعد الثانوية العامة وهم يتحلّقون في مقهى العاصمة، ويلعبون الورق بعد أن عزّ عليهم إيجاد أي عمل.. أذكر منهم بشكل خاص وليد، زياد، فالح، حازم وحسن، وهم يتيهون في عالم الفراغ ويتقاسمون معي الهموم، يذرعون الشوارع في الأمسيات، يتسكّعون على الأرصفة، ويغرقون في عروض السينما ببقايا ما توفّر لهم من قروش.. أتذكّر كيف كانوا يشاركون في المظاهرات التي تطالب بالوحدة، وكيف يجتازون جسور الليل ويتحاورون في القضايا المصيرية!..

زياد هو الوحيد الذي كان يتهرّب من أبراجنا الرملية، ويحاول اقناعنا بمتابعة الدراسة الجامعية.. زياد صاحب الجسم الرياضي، الطويل القامة، والذي أطلق عليه الأصدقاء أيام الدراسة لقب "شبح الرجل الطويل"، كان قابضاً على دينه كالجمر، يُصلّي الأوقات الخمسة، يصوم رمضان، ويدعو معه بقية الزملاء الى المسجد وقت الصلاة، يُذكّرهم أن لا مخرج لحياتهم من كوابيسها إلا بالعودة إلى الله.

حازم كان على العكس من ذلك، متوسط القامة، ينزع الى التمرد والوطنية ألحقّه، ويميل الى العنف..

فالح طويل القامة، اسمر البشرة حليق الشاربين، كان كالنهر الجامح الحائر الذي يتلوى مجراه، باحثاً عن بحرٍ يرتمي في أحضانه.

حسن صاحب الشعر الطويل المسترسل، كان وسيماً وجريئاً في آن، متهوّراً، يواجه المخاطر، يقتحم المشاكل دون أن يفكر في العواقب، يندفع بإحساسه ولا يعرف ما يريد.. ورغم كل هذا التناقض بينهم، إلا أنهم كانوا ينزعون الى التمرد، ويزعمون ان هذا العالم ليس عالمهم، عالم أفضل ينتظرهم بلا ريب.

تحوّلت سهراتهم فيما بعد الى ندوات وأعراس ثقافية متمردة.. جليد كان يحاصرهم في بؤرة الهمّ المشترك، ومقهى العاصمة تضيق جدرانه كزنزانة، وتتّسع حسب حالاتهم النفسية.

لا زلت أذكر تلك الأيام جيداً.. أذكر ينابيع الأمل التي كانت تجتاحني، وأنا أقرأ المنشورات السرية وأستمع الى البيانات الثورية، والأخبار تنقل عمليات الفدائيين واستشهادهم في قلب الوطن.. أذكر كيف كانت طاقاتي الحماسية في أوجها وأنا أندفع الى معسكرات التدريب السرية، والمذياع يعلن ان "ما أُخذ بالقوة لا يُستردّ إلا بالقوة".. كبرت أفكاري وسافرت في البعيد بلا حدود أو قيود، ترسم وتخطط وتتوهج، تلج طرقاً معبّدة، تقود الى

الثورة والتحرير والعودة الى الوطن.. أخذت الثورة شكل العبادة، رحلت في خلايا روحي وسكنت شراييني.. حملتُ السلاح وارتديت الملابس المرقّطة.. وفي أوقات فراغي كنت أجلس طويلاً وأقرأ كثيراً.. أتابع أعداد مجلة العربي والاسبوع العربي ودراسات عربية وآفاق عربية وقضايا عربية، أقرأ عن المرأة العربية والسينما العربية والأزمنة العربية والأزمات العربية.. أرتدي الثياب العربية وأشرب القهوة العربية.. وحين استيقظتُ صباح يوم الخامس من حزيران، وجدت الشعوب العربية ترقص في الشوارع العربية، والشعب الفلسطيني يحزم أمتعته استعداداً للعودة الى فلسطين العربية.. والدي هو الوحيد الذي بقي صامتاً وحزيناً طوال الأيام التالية لذلك اليوم، ظلّ يستمع الى الأخبار طويلاً ولم يترك المذياع لحظة، وحين صحا في اليوم السادس بكى كثيراً، وقال إنه لا يبكي هزيمة العرب الجديدة، فهم لا يريدون الحرب أصلاً ولم يستعدوا لها.. إنما يبكي تراجع العرب أمام المدّ الصهيوني، وأضاف إنه "يعرف أن فلسطين لن تعود قبل أن ينطق الشجر والحجر، ويموت ثلاثة أرباع الشعب الفلسطيني".. أما أنا فقد وجدتُ نفسي في بيت خلاء عربي أعانق أحلامي المهزومة، وسط عاصفة من أمواج الغضب، أتظاهر وحدي وأردّد خلف المذياع باللغة العربية وحدي، "والله زمان يا سلاحي، وأمجاد يا عرب أمجاد، وأخي في عدن، أخي في البحرين، أخي في الجزائر، وأخي قد جاوز الظالمون المدى"..

وكوكب الشرق وحدها في المعركة تبكي وتغني للأرض"نُحبّها من روحنا ونفتديها بالعزيز الأكرم"، والعندليب الأسمر يغني في الإذاعات العربية "وطني الأكبر، واحلف بسماها، وخلّي السلاح صاحي".. بعد أن ضاعت الأرض العربية وتغيّر حراسها، ونزح عنها آلاف المشردين من جديد.

في الحرب أخذت الوجوه أشكالاً جديدة.. سيطر جيش الاحتلال على أجواء البلاد العربية وسماواتها.. "صارت الجيوش العربية مكشوفة، انتظروهم من الشرق فجاءوا من الغرب".. السماء تغيرت.. الهواء تغير.. روائح الأنفاس والأجساد تغيرت، وتغير تفكير الناس أيضاً.. تحوّل النصر إلى هزيمة ولبسها كل الناس، بعد أن تلاشت صواريخ "القاهر والظافر" التي حلموا بها طويلاً.. الإذاعات لم تنقل الحقائق، وحين طلب العرب وقف إطلاق النار، كانت البلاد قد ضاعت ولم تعد "الارض تتكلّم عربي".

لم يجرؤ أحد المسؤولين أن يقول الحقيقة، ولم يُسمّ أحد الأسماء بمسمياتها.. جراد أكل الحقول.. حرب طحنت العسكر وهزمت الجيوش العربية، وتراجعت العقول الى بداياتها، وسط مستنقعات من الذهول.

ما زلت أذكر تلك الأيام جيداً، أرقب التلفاز وهو يُعلن عن وقف القتال وهزيمة العرب.. خيّمت شمس سوداء على الارض

العربية، وأنا أغادر عمان.. أحسستُ إحساساً مريراً بالضياع، شعرتُ أن طاعوناً دبّ في المدن العربية، وصوت مهزوم يلاحقني إلى بيروت، ويكسر روحي.

***

في بيروت أحسستُ بجسدي كأرض يباب، وأن مستقبلي مات قبل ان يولد.. سمكة صغيرة خرجت من مياهها الى اللهاث والاختناق والموت، وأن حياتي أرض جرداء تحلم بغيمة.. في قرارة نفسي تساءلت: "ماذا أفعل!، وهل هذه هي الحياة التي خُلقت من أجلها!، أم أن هناك درباً آخر يجب أن أسلكه حتى أصل الى حياة أفضل!".

بيروت كانت تضيق وتتخذ شكل ذراع يتمدّد الى عنقي ويخنقني، أقنعتُ نفسي أنه ليس من الممكن الجري دائماً.. يجب التوقف ومواجهة الذات، مهما ركض الإنسان وابتعد سيبقى داخل جلده، ولن يتخلى عن ذاته.. في لحظة الانهيار، وعندما يعود المرء لا يملك شيئاً، يكتشف أنه أصبح كمن ينزلق على بحيرة من الزيت، وأنه أصبح حراً تماماً.. تناسيت الهزائم المتكررة ورحت أتجدد مع الحياة.. وحين تصالحتُ مع نفسي، شعرت أني تصالحت مع الحياة أيضاً.. وعلى ضوء ذبالة شمعة اشتعلت في أعماقي، اتخذت قراراً بمواصلة دراستي الجامعية، والعودة الى الحياة من جديد.

***

في البداية تقلّبتُ في أعمال كثيرة لسد حاجتي وتغطية الأقساط الجامعية، لكن مأساة العمل تكرّرت بطريقة أقسى مما كانت عليه في عمان.. شعرتُ أن للفقر ألواناً مثل شهقات الموت، ولحزنه أبجديات جديدة تطغى على برد الشتاء القارس.. قادتني ظروف العمل لرفع مواد بناء الى سطح بناية مكونة من ستة طوابق.. وفيما كنت نازلاً عن سطح البناية والعمال يستعدون للتوقف عن العمل لتناول طعام الغداء، قابلني أحد العمال الوافدين عند منتصف الطريق، وقف العامل يستريح ويحاول أن يضع كيس الرمل الذي يحمله على ظهره على بسطة نافذة الدرج، فجأة اختلّ توازنه، وسقط من الطابق الثالث على الأرض.. وعندما نظرتُ من الأعلى، شاهدت العمال يتراكضون نحوه، بعد أن دُقّ عنقه ومات.

لم أعد للعمل في البناية بعد ذلك اليوم، انقضت أيام ثلاثة وأنا سجين غرفتي، و"محمود" الذي يقاسمني المبيت منذ قدومه من عمان لمواصلة دراسته الجامعية، يدفعني للعمل والحياة ثانية.. ذكّرني أنّ الأعمار والأرزاق بيد الله، وأني لم أكن السبب في موت العامل، ونصحني أن أغوص في صفحات الكتب، وأسبح في المحاضرات الجامعية قبل أن يجرفني تيار الضياع، وأغرق ندماً في متاهات الحياة.

كان محمود على قناعة تامة أن تيار الثورة القادم سيجتاح المنطقة بأكملها، لكنه لم يكن يأبه كثيراً للسياسة، ولا يهتم بما

يحدث خارج محيط كتبه الجامعية، شديد الحرص على مصالحه الشخصية، ودائماً يحمل ما يملك من نقود في جيب خاص تحت إبطه الأيسر، صنعه خصيصاً لهذه الغاية.

محمود على النقيض مني تماماً، انسان بسيط.. طموحاته محدودة.. انطوائي بطبيعته.. خجول.. يتلعثم أثناء الكلام ويسهل التأثير عليه.. يميل الى صداقة الناس البسطاء، أما الأذكياء والمثقفين فكان يتجنّب لقاءهم رغم دراسته الجامعية.. ولم يكن يترك فرضاً من صلواته الخمس، تعلّق بالأمور الدينية وغطّى بـها ضعف شخصيته.

كان يجلس في الغرفة ويقضي الساعات الطوال يتصفّح كتب التاريخ ويقول: "إن العرب لم يقرأوا التاريخ ولم يفهموه جيداً".. وعندما يجمعنا الليل، يحتضن كل منا كتابه ويعيش عالمه الخاص.. نتحدث بهمس، ونصمت على جرح مفتوح.

في اليوم التالي وأثناء عودتي من الجامعة، توقفتُ عند أحد باعة الخضار المتجولين لشراء بعض الحاجات، وكثيراً ما كنت ألتقيه في محيط الجامعة.. "يوسف" شاب فلسطيني في السابعة والعشرين من عمره، يقيم في مخيّم شاتيلا منذ أن هُجِّر والده من الوطن عام النكبة.. طويل القامة، يعمل بائعاً متجولاً للخضار على عربة بثلاثة دواليب يدفعها أمامه.. دار بيننا حديث طويل عن العمل والمعاناة والكفاح المسلح والمخيمات الفلسطينية

المقهورة، وعن حاجتي للعمل ليتسنّى لي دفع أقساط الجامعة.. فأبدى استعداداً لمساعدتي..

توالت الأيام، وتنوعت البضاعة من بطيخ الى شمام الى بندورة، الى غير ذلك مما يحتاجه المخيم.

ذات مساء، وبينما كنا عائدين إلى البيت، دوّى صوت طلق ناري، وفي نفس اللحظة شاهدتُ يوسف يسقط وسط الشارع بلا حراك، اندفعت عربته نحوي، ارتطمت بعربتي وانقلبت وسط الشارع، دوّى صوت طلقة ثانية وسقط أحد المارة، ركض المشاة في كل الاتجاهات يصرخون "قناص، احذروا القناص".. لا يعرف احد من أين أتت الرصاصات.. النوافذ أُغلقت، الأنوار أطفئت.. نساء، أطفال تراكضوا الى الأزقة، وقعوا، قاموا، احتموا خلف الجدران.. رجال بأسلحة متنوعة يتربصون ويطلقون نيرانهم، وشارع الموت خلا سوى من عربتين مقلوبتين وسطه، وجثتين لم يستطع أحد الاقتراب منهما إلا بعد أكثر من ثلاث ساعات، بعد أن تم القضاء على القناص، "كما قيل".

يوسف كان جثة هامدة.. تعاون المقاتلون وحملوه في العربة التي كان يدفعها أمامه قبل ساعات قليلة، ونقلوه الى بيت ذويه.. وحتى ساعات الصباح ظلّ حملة السلاح يجيئون ويروحون، والنساء يبكين ويتألمن ويذرفن الدموع.. وعند الظهيرة شُيّع الجثمان الى مثواه الأخير، وسط عاصفة من الحزن والتهديد

والوعيد للقتلة.. بينما عدت حزيناً وحيداً أجر أذيال الخيبة الى البيت.

***

البيت كان غرفة واحدة، لا تزيد مساحتها عن عشرة أمتار، تقع على مدخل بيت مكوّن من طابقين في منطقة صبرا قرب المدينة الرياضية، حيث تقبع بيوت الصفيح المتلاصقة.. لها نافذة وحيدة تطل على الطريق الوحيد لسكان الحي.. وأمام باب الغرفة مدخل الدرج الذي يؤدي الى الطابق العلوي.. في داخل الغرفة وعلى مسافة أربعة أقدام، يجثم سريري الحديدي، وفي مؤخرة الغرفة باب داخلي صغير يؤدي إلى مطبخ لا تتجاوز مساحته ثلاثة أمتار، وحمّام صغير تحت سلالم الدرج.

في أوقات فراغي من العمل، كنت ألقم المسجل شريطاً وأقبع قرب النافذة التي تطل على زقاق الحي، وأجلس أنتظر بشوق رؤية الفتاة التي تقيم في الطابق العلوي مع أسرتها، أثناء عودتها من المدرسة، كما أرقب المارة والنساء اللاتي لا يحلو لهن إلا التجمع والجلوس أمام أحد البيوت في الممر الضيق، يبسطن سيقانهن، يشربن القهوة ويقلبن الفناجين، يبحثن في بقايا خطوط سوادها عن أمل أو لحظة فرح.. يحكين عن أحلامهن لبعضهن البعض، وينتقدن المارة وحملة السلاح.

ليالٍ طويلة مرّت لا أستطيع عدّها، لاحقتُ خلالها بنظراتي صاحبة أجمل وجه، الطابق العلوي كان مسكوناً بها، أحلامي، كتبي، عملي، وقت فراغي وغرفتي صارت مسكونة أيضاً بعطرها وظلالها.

غارقاً في وحدتي كنت في الغرفة، وذاكرتي تستعيد لقائي الأول معها.. كان الوقت ظهراً، عندما توقفت حافلة مدرسية، وترجّلتْ منها طالبة طويلة القامة، لايتجاوز عمرها السادسة عشر، عنقها ناصع طويل، شعرها اسود فاحم، بشرتها بيضاء، نظرتها خجولة ووجهها ملائكي.. شعرتُ بانجذاب نحوها، ولا أدري ما الذي دفعني للتسلّل خلفها حتى وصلت إلى البيت.. غريباً وجدت نفسي بعد أن اختفت عن ناظريّ.. شعرتُ كمن أضاع شيئاً أو فقد عزيزاً على قلبه.. وبلا مقدمات وجدت نفسي ألاحقها وأدق جرس الباب.. طالعني وجهها من جديد، تمعّنتُ فيه وابتسمت.. لاحظتُ احمراراً ورديا خجولاً يحيق بوجهها مثل هالة.. بشرة نقية وعينان عسليتان، أحسستُ أني أعرفها منذ سنوات طويلة، وأن هذا الوجه يوحي بالألفة والمحبة والاطمئنان.. سألتها عن بيت للإيجار.. وقبل أن تجيب، تناهى الى سمعي صوت من الداخل "مين يا مريم".. ثم ظهرت امرأة مربوعة القوام بوجه مدوّر وبشرة بيضاء قرب الباب، عرفتُ أنها والدتها.

كنت أقف أسفل الدرج، بينما وقفتْ والدتها على ارتفاع اربع أو خمس درجات.. أعدتُ نفس السؤال لوالدتها.. نظرتْ إليّ من الأعلى الى الأسفل ثم سألتني عن عملي؟.. أخبرتها أني طالب جامعي.. قالت: "يوجد غرفة لشخص واحد".. وعندما طلبتُ رؤيتها، طلبتْ من ابنتها ان تحضر المفتاح.. فتحتْ الباب الذي أقف أمامه وقالت: "هذه هي الغرفة".

اندفعت رائحة رطبة من داخل الغرفة المهجورة المعتمة.. سبقتني والدتها الى الداخل.. أضاءت النور ووقفتْ تنتظرني، وأنا أتأمل الكهف الذي يفتقد لكل مقومات الحياة.. هممتُ بالخروج، لكن ابتسامة مريم التي كانت تقف قرب الباب استوقفتني.. أحسستُ أن عينيها تشعان نوراً هادئاً وحزيناً، ووجهها مصيدة.

تلك اللحظة، شعرتُ أن نظراتها الوادعة، تحولت إلى مقصات هدّبت جناحيّ على مدخل الغرفة.. وفي تلك الغرفة الشحيحة الأثاث.. كثيراً ما شعرت أنها جنة الله على أرضه، وأن مريم صاحبة الوجه الملائكي، هي الملاك الموعود بها في الدنيا والآخرة.

***

تكرّر لقاء النظرات بعد ذلك اليوم، وتوثّقت علاقتي بمريم دونما حاجة الى مكاشفة أو تأكيد، وكنت أفسّر كلماتها حسب ما يحلو لي تفسيرها، وعندما كانت تلحظني على مدخل الغرفة،

يرتعش صفاء وجهها، يختنق صوتها الناعم الخجول، وتنسحب إلى الداخل بصمت.

خلال اسابيع قليلة، استطعت أن أبني علاقة جيدة مع والدها "أبي سعيد"، كما استطعتُ اقناعه بتحويل بقالته الى محل لبيع مواد البناء، خاصة وأن منطقة صبرا التي تتعرض للقصف بين يوم وآخر، بحاجة لمثل هذه المواد، وخلال أشهر قليلة تغيّر المحل وانتعشت تجارته، ولم يعد أبو سعيد يجد وقتاً يرتاح فيه، مما دعاه لتوظيف عامل يساعده في عمله.

في وقت فراغي من العمل، كنت أعود الى غرفتي، ألقم المسجل شريطاً، وأتذرع بطلب أي غرض من بيت ابي سعيد.. وعندما أرى وجهها، أقف مأخوذاً وأصمت، وبدورها تقف صامتة أيضاً، وكلانا ينصت بإجلال الى صوت ام كلثوم، وهي تعبّر عما يجول في صدرينا "عوّدت عيني على رؤياك، وقلبي سلّم لك أمره".. فقد علّمني ذلك الوجه الصمت والتحديق والإبحار في الخيال.. سمكة ملونة كانت مريم، أسبح بفرح في أعماق عينيها، أرحل في فضائهما وظلالهما نحو المستقبل.. هالة من هالات قوس قزح كانت تتراءى لي، ودائماً أتذكر لقاءنا الأول، وأتساءل في قرارة نفسي اذا ما زالت تذكره أيضاً!.

***

تلك الفترة، جثمت على لبنان سنوات عجاف، وبيروت كانت تنمو في الأدغال.. الطلقات النارية والقذائف تنفجر كالمفرقعات النارية في الأعياد الوطنية، ثم تنطفئ كومضات غريبة آتية من قيعان البحار، وكثيراً ما غرقت مناطق بأكملها بقذائف لا يُعرف مصدرها.. أمست طريق الجامعة ومحيطها وقع خطى مسافر بلا عودة.. وأنا حائر بين دواليب الطحن والرصاص الطائش، أبحث عن عمل جديد أقيت به نفسي.. أتنقّل بحذر من شارع الى آخر والمحال التجارية مغلقة والدوائر معطّلة.. ترحل ذاكرتي مع زملاء الدراسة، لكني أرى نفسي الوحيد بينهم الذي يعاني من الفاقة.

عشرات الأسئلة كانت تجتاح ذاكرتي وتدفعني للعمل لمواصلة دراستي، ولا عمل في بيروت غير الالتحاق بإحدى المجموعات المتصارعة.. أن يعيش المرء في بيروت تلك الفترة، يجب عليه أن يحمل السلاح ويدفع الموت عن نفسه.. أن يعيش، يجب أن يقاتل ويطلق النار وهو مغمض العينين، ولا يهم بعد ذلك من يموت.. المهم أن يأخذ سلاحه، يبيعه ويشتري طعاماً، ثم يعود بعد ذلك ويشرب من دمه حتى يزول عنه الظمأ.. هذا ما كنت أحدث به نفسي وأنا أعبر الممرات والأزقة والشوارع بصخب وحذر، حتى أستطيع الوصول الى الطرف الآخر من الزمان، وحين لم أجد للجامعة نهاية، حملتُ السلاح، ووقفت جنباً الى جنب مع رفاق آخرين يدافعون عن الثورة، ويشاركون في

معارك الجنوب، لكنني عدت وتفرّغت للدراسة في السنة الجامعية الأخيرة.

ما زلت أذكر تلك الأيام جيداً.. أذكر ان وليد الذي لم أره منذ عامين تقريباً، جاءني ذات مساء صيفي قادماً مع أخي "عبد الله" من الأردن.. أخي كان مقاتلاً مع الثوار في الأغوار منذ انطلاق الثورة ضد المحتل.. تلك الليلة تجرّعنا الشاي والدخان والأرق والقلق معاً.. كان أخي حائراً والغضب يطفح من عينيه.. نفث دخان سيجارته بخط مستقيم وعاد يشرب الشاي من جديد.. شعرتُ بانقباضٍ غريب في داخلي، فالتجأت الى الصمت، كان صمتاً عميقاً وحارقاً، مغلّفاً بأشكال متنوعة من الهزائم، وغبنا ثلاثتنا "وليد وأخي وأنا" في سبات قلق مشروع.

تلك الليلة رأيت وجوه الثوار في ملامح وجه أخي.. بدا غاضباً وحزيناً في نفس الوقت، كان الحزن يحتقن تحت جلده مثل دمعة في عينيّ سجين.. تراءى لي رفاق السلاح الذين رافقوه طوال مسيرته الثورية يتوهّجون في نبض عروقه، وينغلون مثل كريات الدم في أوردته.. أخي كان خارقاً في ظل عروبته.. انطلق من الحياة الغجرية فجراً، تعرّى وتنبّأ بموته عند المساء.. قال إن أعداء الثورة ذبحوه، علقوه في الكلاليب وأخذوا يسلخون جلده، فصلوا لحمه عن عظمه، انتزعوا فروة رأسه، وكاد تحت تأثير الانفعال أن يتخلى عن انتمائه العربي، لكنه لم يمت، وبقي ظِل الكبرياء جزءاً من أنفاسه وصموده وعروبته.. ظل طيلة الليل

يتحدث بعقله ولسانه وعينيه.. يُفكِّر بصوت عالٍ.. تتّسع دائرة تفكيره، تكبر وتتغير مع الأحداث التي مرت وتمر بها الثورة الفلسطينية، ويصرخ من الغضب، تنتفخ شرايين رقبته، تتوتر أعصابه، ويفكر كيف يجتاز المرحلة، وكيف تستمر الثورة!.. يشعر أنه مسؤول عن أمانة كبيرة حمّله إياها الشهداء والأرامل والأيتام والشباب والثوار وأبناء الشعب.. وعليه أن يجد الحل من خلال الذبح والموت والتشرد.. عليه أن يستمر في النضال من أجل أن يكون النضال شريفاً ونقياً، من أجل وقْف الهزائم، ومن أجل برنامج عمل علمي ومدروس يناسب المرحلة.

حين وجد الحل، شعر بحريته تعود إليه.. اكتشف أنه لا يشعر بنفسه حائراً ومهزوماً، بل حراً.. تصالح مع نفسه، شعر أنه امتلأ باليقظة، قال إنه ملك نفسه وملك مصيره، ومع بزوغ الفجر حمل سلاحه وارتحل الى الجنوب اللبناني مع وليد، بعد أن تركا في أعماقي كل ما كانا يملكان من وجع الكلمات الحزينة.

بعد تلك الليلة لم أكحّل عينيّ برؤية أخي.. آهات حزينة ومؤلمة انقضّت على ذاكرتي مثل الصاعقة.. خيوط من الهمّ عربشت وتشابكت في أعماقي، والمذياع يعلن عن اجتياح القوات الإسرائيلية لجنوب لبنان، تداعيات غريبة اجتاحت كياني، وكأنما استيقظتُ من عالم خفي عميق.

فجر اليوم الثالث أُعلن عن خبر استشهاد أخي، وقبل ظهر اليوم الرابع شاهدتُ رفاق السلاح يشيعون جنازته، وقشعريرة الموت تجثم على وجوههم غير مصدّقين خبر نعيه.

قبل ثلاثة أيام استعصى على أخي النوم، هموم وأحداث أكثر من ربع قرن مضت من التشرد، تشابكت في ذاكرتي مثل شبكة عنكبوت.. وشعرتُ به يرحل بين المنفى الإجباري والموت.

رحل أخي إلى المجهول، وما زال يتربع في الذاكرة مخذولاً حتى النخاع.. يتراءى لي وهو يتحدث عن القتل والمؤامرات، التشريد والمنافي، الماضي والحاضر، ويُردّد بأن ماضيه وجع وذاكرته مُستباحة.. وكأن كاميرا تدور في أعماقه وتلتقط تفاصيل الوجع، ولا مخرج من متاهته إلا بالرحيل إلى قلب الوطن.

ظهيرة ذلك اليوم، أثناء تشييع جنازته،تلبّدت السماء بغيوم سوداء، وانهمر المطر، تمايلت الاشجار بعنف مع الريح، وتوالدت الأحداث في ذاكرتي من جديد.. بدا المكان موحشاً والجو كئيباً حزيناً، وصدى رجْع ناي حزين يدفعني للبكاء.. أحسستُ بغربة يتيمة، تحجّرتُ بين المشيعين لا أحكي ولا أبكي.. رحت أتشبّث بحبال الذاكرة، والصور تختلط وتنساب أمام ناظريّ بشكل ضبابي ولون قاتم.

تأرجحت صورة أخي في ذاكرتي، تراءى لي يخرج من إطار الصورة ويركض في الذاكرة، يتيه سنوات طويلة قبل أن ألتقيه

ثانية في بيروت.. قال إنه جاء إلى لبنان متسلّحاً بالنسيان لمحو الماضي من ذاكرته، لكن الأحداث الماضية ولّدت في نفسه رعباً بليداً كالرصاص، وتأكّد له أنّ من وُلد في أعوام الرعب، وعاش زمن الحصار وعصور الظلام، لا يمكن لذاكرته أن تقوى على النسيان.

***

غاب وليد عن عينيّ أيضاً بعد أن استشهد أخي، لم أعد أراه.. ذات ليلة وبعد أشهر عدة، التقيت به في شارع صبرا، سألته عمّا يفعل في هذه الساعة المتأخرة من الليل!.. علا وجهه ابتسامة حزينة وقال: "ابحث عن مكان أشرب فيه القهوة وأبيت فيه".

فجأة دوّت طلقات نارية من مكان قريب، تراكض المارة وتاهوا في الممرات والأزقة.. فأسرعتُ ووليد إلى غرفتي.

لم ينم وليد تلك الليلة، تمدّد على ظهره، وما بين فترة وأخرى كان يرفع رأسه ويتأمل مطوّلاً صورة أخي الشهيدالمعلّقة على الجدار، يتذكر رفقته في الأغوار وفي جنوب لبنان، وموكب جنازته إلى مقبرة الشهداء في بيروت.. يتيه في عالمه من خلال عينيه الغارقتين في تجاويف معتمة.. ويعيد ذاكرتي إلى ذلك اليوم الذي استشهد فيه أخي، قبل أن يرى تراب الوطن الذي استشهد من أجله، وقبل أن يبلغ الثانية والعشرين من عمره.

تلك الليلة ووليد يتأمل صورة الشهيد، والأحزان تتسلسل، تلاحقتْ الصور الضبابية في ذاكرتي وغمر المكان حُزْناً وحشياً،

ورأيت ببصيرتي ما لا أراه بعينيّ.. رأيت أخي الشهيد ينزل من الصورة المعلّقة على الجدار، يحتضنني ويسافر معي عبر رحلة طويلة من الشوق والصمت الأبدي الحزين.

ظل وليد طيلة الليل واجماً وحزيناً، وعندما نطق عند الفجر، أخذ يهذي ويصرخ: "مات الشرفاء، ولم يَبْق غير المسوخ.. المسوخ باقية ما بقي القتل والدمار والحرب، مات الشرفاء، ولم يبق غير القتلة والضحايا".

***

تلك السنة، كان الكثير من المقاتلين يحلمون بشهادة الموت، وتحرير فلسطين التي تمر طريقها من بعض العواصم العربية "كما قالوا".. أما أنا فلم أحلم بشموس تسطع، ولا بأقمار تنير، بعد أن استشهد أخي، سوى تلك الشهادة الجامعية وهي تسطع بين يديّ، وتنير عالم مستقبلي.. تناولتُ كتاباً واستلقيت على السرير أراجع ما اختزن في ذاكرتي من معلومات، وسط القلق الذي ينتاب المرء قبل وأثناء تأدية الامتحانات.. بعد دقائق فُتح الباب ودخل محمود برفقة "نعيم" زميل الدراسة الثانوية في عمان.. قال إنه التقاه عند ساحة رياض الصلح.. وجه عمّاني قديم، رجل عصامي، دفعه فقر والديه للعمل مبكراً أثناء دراسته الإعدادية، وما زلت أذكر كيف كنت أتقاسم معه بيع بطاقات المعايدة أمام ساحة الجامع الحسيني الكبير، وعلى مدخل شارع بسمان حيث

يكثر باعة الكتب والأدوات المدرسية، في أيام العطل المدرسية، وفي المناسبات والأعياد.. وموظفو الأمانة يطاردون الباعة، يأخذون بسطاتـهم الصغيرة بما عليها من بطاقات أو كتب، ونعيم يسترجع أغراضه في اليوم التالي بطرقه الخاصة.. وفي نـهاية الأسبوع أتقاسم الأرباح معه، فأشتري بما ربحت ثياباً من سوق الباله أو كتاباً، بينما يشتري نعيم ربطة عنق جديدة أو حذاء جديداً.. وأعجب كيف جمع نقوداً أكثر مني!، لكني عرفت فيما بعد أنه وظّف طلاباً آخرين، على بسطات جديدة في أماكن أخرى لمصلحته الخاصة، وكان يقاسمهم الأرباح أيضاً.

في معرض حديثه، قال نعيم تلك الليلة، أنه درس مسّاحاً في أحد معاهد عمان، بعد أن أخفق في الثانوية العامة للمرة الثانية، وقد جاء الى بيروت للتعاقد مع إحدى الدول الخليجية، لتعذّر التعاقد من عمان.. وعندما دعوته للمبيت في غرفتي، رفض وقال إن الفندق أكثر أمناً، وأصرّ محمود على مرافقته والاطمئنان عليه حتى وصوله الفندق.. لكن محمود لم يعد تلك الليلة، وطغى غيابه على كل الأحداث.. وحين لم يظهر في الصباح أيضاً، اندفعتُ الى باحة الجامعة وقاعاتها أبحث عنه، فلم أجده أيضاً.

عند المساء تواردت المعلومات أنه محتجز عند أحد فصائل المنظمات، وعرفتُ أنه معتقل مع شخص آخر متهم بالتجسس لصالح فئات معادية.. وعندما قابلته صباح اليوم التالي بدا خائفاً

ومرعوباً، قال إنه لم يفعل شيئاً يستحق عليه الحجز وهذه المعاملة، والمبيت في زنزانة انفرادية وكل هذا التحقيق.

لم أصدّق ما قيل عنه، فمحمود معروف بحسن خلقه وأخلاقه وتشيّعه للدين، لا دخل له بالسياسة ولا بالأحزاب ولا المنظمات، إنسان مستقيم عابد ومتديّن، لم يترك فرضاً ولا سنّة من صلاته مهما كانت الظروف.. بصراحة أنكرت ما نُسب إليه، مما دفعني للتوسط له والإفراج عنه.

في الأيام الثلاثة التالية، اعتزلني محمود وغرق في القراءة الصامتة، وكم كانت دهشتي عندما شاهدتُ صورة فاضحة لفتاة عارية بين صفحات إحدى كتبه..

تلك الليلة، أنكر معرفته بتلك الصورة، واتهمني بأني احتفظ بصور خليعة في بيتي، افتعل مشاجرة كلامية معي، لملم حاجاته وكتبه في حقيبة، وغادر الغرفة دون وداع.

***

النافذة الثانية

طيـور النـار

أخيراً انقضت سنوات الدراسة الجامعية الأربع بخيرها وشرها، الأحلى والأقسى،وبتُّ أعيش القلق بانتظار النتائج، عرجتُ إلى مقهى في مخيم شاتيلا،انتحيتُ جانباً وجلست أرسم عالم مستقبلي بعيداً عن السلاح.

المقهى يعجّ بالمقاتلين ممّن قذفتهم المحن والشدائد إلى بيروت.. أشعلتُ سيجارة ورحت أتفحّص وجوههم، شعرتُ أنها وجوه قديمة، نبتت من جديد، تمرّدت على الواقع وسط الضباب والعجز واللاإمكان، وتجددت بعد سنوات الانكسار والحيرة.. رجال تعلّقوا بذيول الآمال وحب الحياة، هوى التغيير وقهر المنافي البعيدة.. في بيروت نبتوا كالشوك بين الخرائب، وكالعشب بين القبور.. مخيمات اللاجئين في بيروت والجنوب والشمال أصبحت في عهدهم غُرفاً فلسطينية مغلقة، لا يدخلها أي هواء لبناني.. غُرَف لا أبواب لها ولا نوافذ.. يحملون السلاح ويملأون المقاهي ضجيجاً أثناء إجازاتهم من المعسكرات.. منفعلين دائماً ومنغلقين على أنفسهم، ويعتقدون باستمرار أنهم يملكون الحق.. يعيشون على أمل المستقبل، يحلمون بتحرير الأرض والعودة الى الوطن، وجُلّ أحلامهم وانفعالاتـهم تقودهم

إلى الفشل، الحياة عندهم فشل، الحب فشل.. ومع ذلك يعتقدون أنهم يملكون كل الحق.

تناهى إلى سمعي من وسط الضجيج حديث طويل عن الوطن والقهر والإبعاد.. مقاتلون ثلاثة انتحوا جانباً وراحوا يرددون القول إنـهم يستحقون عالماً أفضل.. خُيّل لي أني سمعت هذه الكلمات من قبل، وأنني أعرف هذه الأصوات جيداً.. أدرت وجهي وتفحّصت الوجوه من جديد.. تقابلت العيون وتعارفت بفرح وشوق، فالح وحازم وحسن كانوا الأكثر شوقاً وبهجة.. ومع أنهم شعروا بفرح طفولي للحظات، إلا أن ذلك لم يُنسهم الهزيمة التي يحسون بها في أعماقهم، وفي كل أنحاء أجسادهم.

تلك اللحظة شعرتُ أني ألج نفقاً مظلماً وهم يحملون معهم كل قرف العالم وتعبه..

حازم مازال يحلم بالمستقبل، ويدفع نفسه نحو النور والأمل..

فالح ما زال فاشلاً، ودوماً يحلم بالانتحار..

اما حسن فكان يائساً من الوضع، وصرّح أنه غسل يديه من العروبة، وتفرّغ للموت على طريقته الخاصة.. ورغم كل هذا التناقض، إلا أنهم كانوا متفقين على شيء واحد فقط، أن يغوصوا في شرب كحول ذي قوة حقيقية، حتى لا يعودوا يعرفون بعضهم بعضاً، ولا يعرفون موقعهم من هذا العالم.

***

تلك الليلة سهروا في غرفتي الصغيرة حتى ساعة الفجر.. امتزجت أحاديثهم مثل زجاجة فيها سوائل متنوّعة من الشراب المستساغ الى الشراب المر.. مزيج من الكوكتيل الإنساني.. أحسستُ بهم كفزاعات بلا وجوه.. أقنعة جالسة تتحدث برؤوس منحنية أحاديث متقطعة غريبة لا رابط بينها، الهزائم في أعماقهم ما زالت تتوالد، الحروب، المذابح، القلق، الخذلان، المؤامرات، السجون، القتل، التشريد، المنافي والعواصم المهزومة.. كل ذلك شكّل في نفوسهم قبباً من الفراغات المظلمة.. انقسموا على أنفسهم.. تمرّدوا على عقولهم، وقاد كل منهم تياراً عربياً في ذاكرته.. وأحسّ يقيناً أن ماضي الإنسان لا يموت، وإنه جزء من حاضره يطارده نحو المستقبل.. خُيّل لي أن الهزائم ابتلعت شبابـهم، وحوّلتهم الى أناس عنيفين، وسريعي العطب.

اقترح حازم في نهاية السهرة ان يتخلّى الرفاق عن أسلحتهم، ويُشكّلون حزباً سياسياً عربياً في المنفى، يضم جميع المنفيين الى هذا البلد، هدفه إسقاط كل شيء قائم في التابوت الذي يمتد من المحيط الى الخليج، فإما أن يثبتوا وجودهم في معترك الحياة، أو يندثروا تحت التراب.

عارض حسن الفكرة وقال إنّ الأحزاب في الوطن العربي أحزاب كرتونية وفقاعات هوائية.. أما فالح فقد اقترح إخلاء السرير الذي يجلسون عليه ليتّسع له المكان قبل أن يغفو على مقعده.

مساء اليوم التالي وصلَنا زياد ووليد قادميْن من دمشق، وانضما إلى "الشلة"، ليشاركا في صنع قراراتها "الخارقة"!.

زياد الذي كان في عمان ناسكاً متعبّداً.. حوّلته الأيام في دمشق إلى رجل آخر، انخرط في أحد الأحزاب وتزعّم قيادة طلاب الجامعة.. فجأة وجد نفسه على الطرف الآخر من الكرة الأرضية، وهو يعيش مع زملاء على درجة كبيرة من الوعي والفكر المتقدم، يناضلون في سبيل قضيتهم الفلسطينية، ويمارسون حقهم الطبيعي في العيش والحياة.

تغيّر زياد في سنته الجامعية الأخيرة كثيراً.. أصبح طلق اللسان.. استحوذ على اهتمام كل من قابله.. كثير الحركة والتنقل.. مغامراً بذكاء وعقلانية.. خفيف الظل ولاذع اللسان في آن، وكلماته دائماً تحمل أكثر من معنى.. اقترح بعد سهرة طويلة أن يترك الرفاق فكرة تأليف الحزب الى تشكيل لجنة دفاع عن حقوق الإنسان في الوطن العربي الكبير.. أيّد وليد الفكرة، لكن حسن عارضها واقترح مواصلة الشرب، وعند الصباح يعودون إلى المقهى، وهناك يتناقشون في أحداث العالم من جديد.. أما فالح فقد أقرّ أن غرفتي هي المكان المناسب لمناقشة القرارات الهامة، وهي المكان الوحيد الذي يُبدي فيه المرء رأيه بصوت جهوري دون خوف، ودون أن يسمعه أحد.

بعد أقل من شهر ظهرت النتائج الجامعية.. تخرّج زياد في جامعة دمشق، وبدأ مسيرة البحث عن وظيفة دائمة.. محمود تخرّج أيضاً وغادر الى الجزائر مدرّساً دون أن يودّع أحداً.. أنا كذلك، حقّقتُ حلمي وحصلت على الشهادة الجامعية، لكنني لم أستطع مغادرة بيروت، ووجدت نفسي عالقاً وسط طيور النار، أحمل السلاح وأحلم بتحرير الوطن.

***

قاربت عقارب الساعة من الثانية صباحاً ولم أنم بعد.. كنت قلقاً بعد أن فقدتُ أحلامي، وتحدّدت مسيرتي بين فصائل المقاومة.. الثورة أصبحت كل ما أملك وكل ما تبقّى لي في الحياة.. أيقظني من متاهتي طرْق خفيف على الباب.. دخل أخوة السلاح وجلسوا على السرير، وراحوا يتيهون في الحديث عن الثورة والعملاء والاغتيالات، والأرواح التي باتت على أكف العفاريت، كما قال أحدهم، يعبثون بالغرفة والفراش ويستمعون الى كونشيرتو من أوبرا "لاترافياتا" لفيردي، والموسيقا تنبعث وتنساب من السقف والجدران وكل الأركان.

سقط كوب الماء من أحدهم وتهشّم على أرضية الغرفة.. قام آخر وحرّك السرير تمهيداً لتنظيف قطع الزجاج التي تناثرت تحته.. سقطت ثلاث قنابل من نوع "ملز" على الأرض كانت مخبأة مع مسدس تحت فرشة السرير.. جلستُ القرفصاء

والتقطت قنبلتين.. وعندما حاولتُ إلتقاط الثالثة، علق مفتاح الأمان في سلك من أسلاك السرير وانسحب منها، صرخت "القنبلة ستنفجر" ورحت أضغط على مقبضها بين أصابعي وراحة يدي، ولا أذكر بعد ذلك ما حدث بالضبط.. تراءى لي فالح يقفز نحو الباب في محاولة لفتحه، لم ينفتح الباب، تراجع وأخفى رأسه تحت السرير، تاركاً جسده على شكل قوس خارجه.. وقف حسن في زاوية وقد خبّأ رأسه بين يديه.. مرّت ثوان ولم تنفجر القنبلة، أسرع حسن نحو الباب، فتحه وانطلق خارج الغرفة.. خرج حازم من داخل المطبخ ولحق به فالح يسب ويلعن.. سحبتُ مفتاح الأمان الذي كان عالقاً بأحد أسلاك السرير، ولحقتُ بهم والقنبلة في يدي حتى لا تنفجر داخل الغرفة.

كانوا يركضون في الممر الوحيد، وكنت أتبعهم بأقصى سرعة، وفي نهاية الممر تناثروا يميناً وشمالاً، بينما تابعتُ الركض حتى وصلت المدينة الرياضية.. وعلى بقعة رملية تحت عمود كهربائي مضيء، نجحت محاولتي بإعادة المفتاح الى مكانه، وحين عدت الى الغرفة، كانت مضاءة والباب لا زال مفتوحاً، ومع ذلك لم يتنبّه أحد من المارة الى القنبلتين الموجودتين على حافة السرير، كما لم يعد أحد من الزملاء تلك الليلة.

***

حازم، فالح، زياد، وليد، حسن وأنا، جميعنا انطلقنا مع الثورة حتى نهاية المشوار.. كانت الثورة طاقة حماسية تضطرم في

دواخلنا، حاولنا من خلالها تغيير وجه العالم.. إنها ما نملك وما يُفرض علينا، تعبير طبيعي لجيل رأى ما رأى من الخيبات والهزائم، حتى لم يعد يستطيع ان يؤمن بشيء آخر سوى حمل السلاح، وصواب نظر لا أوهام فيه.. أما الحرية فهي ما تبقّى لهم وما توصّلوا الى إنقاذه من القلق، لا ما أضافوه الى هذا العالم..

اعتزل حسن المقاتلين وأقام في غرفة قرب مأوى العجزة، صار زعيماً على نفسه، وتفرّغ للموت على طريقته الخاصة.

فالح كثيراً ما كان يردّد على أسماعنا: "الثورة هوى، لا يثور سوى مَن يعرف لماذا يثور، والواقع أننا لا نعرف لماذا نثور خارج نطاق الوطن المحتل".. ومع أننا جميعاً غرقنا في الثورة، إلا أننا وجدنا أنفسنا نغرق في مساحة المنفى المفروض علينا وسط حرب أهلية اشتعلت في لبنان.. اكتشفنا جميعنا أننا ننتمي الى بؤس من لا وطن لهم، رغم اتّساع مساحات الأرض، وما عاد لنا هدف في الحياة غير تحرير الأرض والعودة إلى الوطن.

***

حازم

بعد عام من القلق، فاجأتنا الأخبار بالحرب التشرينية التي لم يكن يتوقعها أحد، والتي لم يستطع أحدنا المشاركة فيها إلا من خلال طلقات رشاش على طائرات عدوة خرقت الصوت، ولم نرها في سماء بيروت، ثم عادت ودكّت معسكرات المقاتلين من على بعدٍ وارتفاع شاهق.

غرفتي باتت مقراً للرفاق، فيها يتنفسون بحرية، ويقولون ما يشاؤون .. حازم كان حاضراً تلك الليلة دون الرفاق، جلس وأخذ يكتب قصيدة ثورية.. كان يقدح قصائده كمن يطلق الرصاص في الأعراس والمآتم، ليزف عريساً أو يشيّع حبيباً أو قريباً.. كلماته أشبه بطلقات قناص في شارع مخمور.. قال "إن أولى قصائده أهداها الى مدينة لم تغادر ذاكرته حتى اللحظة، والثانية للتّيه والخوف في البلاد العربية، أما الثالثة فللنّضال ضد الجوع والفقر، والبحث عن وطن يتّسع لهذه القصائد"..

لم يعد حازم يهتم للطلقات النارية وسط حرب لبنان الأهلية، أقنع نفسه بما يفعل، وراح يكتب ويكتب، ويبدل صراخه بحروف من نار، وحين يشعر بالتعب، كان يفرغ ذاكرته على الورق، ويغيب لساعات وهو ينظر الى بعض تعاريج قصائده في محاولة ليمحو بعض الكلمات أو تبديلها.. قال إن هذه المدينة تدفعه للحزن، ودائماً يشعر أنه قادم من بطن موجة أو عمق محيط، يحسّ بملح البحر كله يتجمّع في حلقه وفي عينيه، ويشعر بالغرق

في الوحل أو الرمال المتحركة، والسنوات تمر دون أن يُحقّق لنفسه شيئاً.

تلك الليلة، مزّق حازم حواجز صمته، وتحدث عما يُخبّئه في صدره.. قال: "إن مجانين بيروت مساكين، إنهم لا يعرفون أن دمارهم عُقد على حقدٍ عظيم، وإنه لن ينتهي إلا على حُبّ أعظم.. التاريخ لا يرحم الضعفاء ولا القتلة، إنهم يصنعون الموت والدمار بأيديهم، وطالما هذه طريقهم، فلن يفلحوا في مقاومة الأعاصير".

أضاف حازم بأنه لم يكن المقاتل الوحيد الذي يعشق بيروت، بيروت كانت المعشوقة الوحيدة لكل المقاتلين.. كان يرقب الأحداث عن كثب.. يعيشها ويتفاعل معها.. يعرف تماماً أن في الحرب الأهلية الحقيقية يُعبّأ المواطنون وراء قضية، وراء رؤية ووراء نزعة، لكن في المسالخ اللبنانية شاهد نوعية من التلاعب والفساد والمغالطات.. شاهد المسلحين الذين يطلقون النار على بعضهم لأسابيع، يتبادلون القُبل حال وقف القتال أثناء هدنة مرقّعة.. مسلّحون مُقنّعون يرابطون وراء حواجز الأكياس الرملية أو خلف الجدران المهدّمة، يطلقون نيران البنادق الرشاشة والقذائف والمدافع، وحتى الصواريخ على أهداف منظورة وشبه منظورة.. نساء مصابات بالدوار وأطفال منكمشون على أنفسهم، يرتعدون خوفاً في ممرات مهترئة آيلة للسقوط.. فقراء يربطون أحذيتهم بأمعائهم.. رجال يُذبحون بدم بارد تحت وهج شمس

البحر المتوسط، يُساقون بعيداً حيث يُقتلون إذا كانت بطاقاتهم تشير الى طائفة مغايرة لطائفتهم.. الجثث المشوّهة، الأعضاء التناسلية التي فُصلت بوحشية، والأيدي المكبّلة خلف الظهور، تُلقى في أرض لا تخضع لسيطرة أحد من مناطق المتحاربين المتجاورة.

بيروت أصبحت مدينة مفتوحة، أبواب مفتوحة للمغتربين، أبواب مفتوحة للمتقاتلين، وأبواب مفتوحة للمنافي.. في بيروت مات الحب، وعاش الحيوان المريض في عقل الإنسان.. بيروت تدفن الماضي وتأكل الحاضر، تُمزّق المستقبل وتُحوّل العذراء الى بغي.. آلاف الجرحى والمعذبين مرّوا من شوارعها، وآلاف القتلى مرّوا من ثقب رصاصة قناص متهوّر أو صلية رصاص من مقاتل طائش.. عالم فاسد تحكمه سلالات حيوانية، ارتدت أقنعة آلهة، جثمت فوق الأرض والبشر، عالم احتشد بالخنازير ولصوص المال وضباع السلطة والقتلة.

***

قال حازم الكثير تلك الليلة.. كان بحاجة لمن يستمع له.. سافرت أفكاره بعيداً عن المرافئ المأهولة، وأعادته إلى زمن سحيق، مليء بالتصدّعات والانفعالات والشباب المشروخ.

أضاف: الفوضى كانت تسود المكان في الوطن، فجأة وبدون مقدمات وجد نفسه وسط حشد من الأخوة المتقاتلين في مسقط

رأسه، القتال بين أخوة السلاح كان نقطة التحوّل وبداية النهاية، لم يؤمن بهذا القتال يوماً.. إنه صاحب قلم، حساس وشاعر، لكنه تساءل كثيراً قبل أن يجيب عن الأسئلة التي قبعت في مؤخرة رأسه.. "هل كان عنده استعداداً للقتال حقاً؟، وهل كان ذلك يتعلّق بمبدأ أم برغبة للهروب من الواقع المعاش!، وهل حقاً كان ينوي الرحيل مع المرتحلين!".. كان قلقاً وتعباً من المخابئ السرية والتشرد، مُرهقاً حتى الوجع، ضائعاً، يغوص في رمال متحركة ولا يعرف كيفية الخلاص منها.. السجن أجاب عن كل الأسئلة حين وجد نفسه محشوراً داخل زنزانة بتهمة الخيانة، وحمْل السلاح غير المشروع.

أضاف أنه لا ولن ينسى أبداً كيف تنصّل من كل المبادئ وأعلن التوبة، وكان عليه أن يختار بين البقاء في السجن أو مغادرة البلاد.. وكان خياراً صعباً حين فضّل حرية النفي على القفص الذي يقيّد حريته، ويمنعه من الطيران والتحليق عالياً.

كان حزيناً ومُرهقاً عندما تخطّى بوابة السجن، وسيارة تنقله ليلاً إلى الحدود، دون أن يرى أو يودع أحداً.. فالح كان رفيق الدرب والجرح والثورة، رفيق الهروب والحنين الدائم والضياع في أرض الله الواسعة، لكنه يُفكّر بطريقة أخرى.. كان يشارك بالجرح ويُفكّر بِتْرك السلاح والهروب من مسقط رأسه ليُكرّر منفاه في بلاد أخرى، بحريته وبالطريقة التي يختارها لنفسه.. في

لبنان وجد نفسه مع فالح رفيق الدرب والحرية، يخوضان معارك الموت حفاظاً على الحياة.

أضاف حازم: "القتال في تلك الأيام كان علناً، الاختباء من القذائف يعني إطالة العمر.. وقْف القتال يعني السلام.. الاستسلام للقوات الحكومية يعني الحياة.. خروج حملة السلاح من المدن وبسْط سلطة الحكومة يعني نهاية الأزمة والسلام.. لكن بيروت القنص والخيانة والمؤامرات والقتل في الظلام والتدمير النفسي والروحي والغربة والنفي.. كل ذلك يعني الخداع وتغيير الأسماء والشخصيات والنفوس وحتى ملامح الوجوه، يعني الموت المؤكد أو القلق والحفاظ على الحياة بأية وسيلة ممكنة، وكل ذلك حتى يستطيع المرء أن يرقد في فراشه ليلة واحدة، لا يشعر خلالها بهدوء أو سلام.

في لبنان لم يعد القتال شريفاً، لم يعد الموت شهادة ينالها المرء وساماً لتحرير فلسطين، أصبح الموت في سبيل مصالح الآخرين، قادة المنظمات ورجال المصالح العليا، والغريب أنّ بعض حملة السلاح يؤمنون بما يُملى عليهم، أصبح لبعض الرجال المأجورين سعرهم الخاص في القتل والاغتيالات، وأصبح لكل مقاتل أو شخص يُراد اغتياله، ثمناً خاصاً أو جائزة قيّمة".

في بيروت فوجئ حازم بالأخبار التي كانت تصل إليه وهو يستمع للقادمين والراحلين، ينقلون مقدار الجوائز التي وُضعت

ثمناً لرأسه بعد خروجه من السجن.. ورغم أنه كان على يقين أنها أخبار كاذبة وملفقة تُشاع على ألسنة البعض، إلا أن ذلك أثار عنده القلق، ودفعه لحمل السلاح ثانية، والاستعداد لحياة المنافي وعدم التفكير بالعودة نهائياً.

أضاف: كنت متوتّر الأعصاب، وكانت أفكاري تعبيراً عن قلقي الداخلي، وعن ذلك الاضطراب الروحي العميق، الذي لا يمكن أن يعاني منه، إلا من يُدرك احتمال مصرعه الوشيك.. وكان عليّ كما على المناضلين جميعاً وحتى القادة، أن يتوجهوا لمقابلة الرصاص وجهاً لوجه، وأن يستعدّوا للحياة بعد الموت.. وكان منهم من يتمنى الموت فعلاً.. أما أنا فكنت أرغب في الجلوس مع نفسي، مع أفكاري ومشاعري المتوترة التي ستترك مكانها في لحظة الموت للأفكار والمشاعر غير العادية.

شعرتُ أني عدتُ صفراً من جديد.. جلستُ مع نفسي وحاولت استرداد وضعي الطبيعي.. بدأت أرتّب أموري.. استلقيتُ على السرير.. شعرتُ أن ألماً فظيعاً يهاجمي.. تذكّرتُ العذاب النفسي الذي عانيته في السجن.. وجدتُ نفسي وأنا أحملق في سقف الغرفة، أني أُبحر في البعيد دون هدف مُحدّد، عذّبتني الفكرة، تقلّبتُ على سريري بألم، أقنعت نفسي أنني مناضل في الثورة التي تهدف إلى تحرير الأرض.. أغمضتُ عينيّ ورحت أستعرض شريط حياتي، ثم أخذت أتساءل "هل تحرير الوطن يمر فعلاً من بعض العواصم العربية والمدن اللبنانية أو جنوب

لبنان!".. لا أعرف، لكني مقاتل فحسب، أحمل سلاح الثورة وأناضل.

حين أقنعتُ نفسي، أحسست بالنعاس يتسلل إلى جسدي.. أغمضت عينيّ ثانية، وتركت جسدي يسبح في عالم من الشفافية فوق السحب السوداء، التي ملأت سماء أفكاري، وراحت الأحداث تتسلسل في ذاكرتي من جديد.

مساء ذات يوم، وجدت نفسي بين مجموعة من حملة السلاح على مقهى في مخيم شاتيلا، يجمعهم الشتات وتلفّهم حبال من الدخان.. كانوا عاجزين عن القول والعمل.. نثروا أحلامهم وتحلّقوا في دوائر أوهامهم وضبابهم.. جمعتهم قضية المصير المشترك والهدف الواحد، لفّتْ ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم.. كان الصمت يُخيّم عليهم جميعاً.. شعرتُ أنـهم يأتون إلى المقهى مُحمّلين بالتعب والإرهاق.. بدأ أحدهم يشرب الشاي الثقيل ويسرد ذكرياته وقصة حياته، تبعه آخر بالسبّ والشتائم.. اكتشفتُ أن المقاتلين يجتمعون على المقهى ليقولوا ما يعجزون عن تحقيقه، تطاردهم لعنة البلاد العربية، ويغرقون في الشراب والصمت ولعب الورق، يستمعون إلى حكايات مطر بيروت وقنابلها وقتلاها على الهوية، وتشريد آلاف الفلسطينيين من المخيمات، فقط لأنهم فلسطينيون، والفلسطيني تُهمته جاهزة، مؤجّلة التنفيذ، ومُسجّلة لدى كل دوائر العالم.

الثورة لم تعد كعهدها السابق، "أضاف حازم"، النضال أصبح ضد العرب لا ضد الصهاينة الذين اغتصبوا الأرض وشرّدوا الشعب.

تلك الليلة، شعر حازم أنه مُمزّق ومسلوب الإرادة، ومع ذلك قرّر ألاّ يستسلم لهواجسه، وما يُفرض عليه..

أضاف: تحوّل حشد المنفيين في بيروت إلى أهل وأخوة وأصدقاء بلا وطن.. وطنهم تقلّص وأصبح صغيراً على شكل رصاصة تُحمل من خلال سلسلة في الرقبة.. وحدي أنا حازم الصحفي والشاعر المهاجر لم أعلّق رصاصة في عنقي.. كنت أحلم بمستقبلي وأعيش الحنين إلى زمن الماضي.. أغرق في صمتي، وأشرد بأفكاري عبر أرصفة بيروت.. غصّة قاتله في أعماقي، أحاول أن أتكلم فلا أجد الكلمات المناسبة التي تُعبّر عن مشاعري.. أعيش القلق والحيرة بكل معانيهما.. فجأة وجدت نفسي محشوراً بين عالم خليط من التشرد والبؤس والبحث الدائم عن سبب البقاء.. انفجرتُ صارخاً واجتاحت كياني نوبة من الجنون والشتائم، لم يكن لدي الوقت لمراجعة أحاسيسي والتفكير فيما إذا كنت سأموت أم لا!.. إذا كان لا بُدّ من الموت فلماذا لا أموت شهيداً.. فتحتُ باب الغرفة وأشعلت النور.. ألقى الضوء الخافت ظلالاً على حاجاتي القليلة المتناثرة في الغرفة، وقفت أتأملها.. وقع نظري على الكلاشن المسنود على الحائط جانب السرير.. بدت لي الثورة بعيدة جداً، وبدت البلاد العربية بعيدة

أكثر مما تستطيع ذاكرة مناضل منفي مُتعب استحضارها تلك الليلة.. هززتُ رأسي بصمت واستلقيت على السرير، لكن النوم لم يساعدني مثلما يحدث دائماً وقت الإرهاق الشديد.. بقيت مضطجعاً بضع دقائق، ثم أنزلت قدميّ الحافيتين إلى الأرض.. أشعلت سيجارة ورحت أنفث دخانها وأتأمّل حاجاتي المتناثرة من جديد.. تذكّرت الماضي واختزلت حياتي في جذرٍ وفعل، "سيئة وأسوأ".. حوّلت نظري عن المصباح، طُفت ببصري ثانية في الغرفة وعلى الفراش، ورحت أصارع جمودي الغريب، وللحظة خُيّل لي أن كل هذا حدث لي من قبل في زمن آخر، وفي مكان آخر.

***

تلك الليلة وحازم يروي تفاصيل حياته، كانت الذكريات تهاجمه بعنف وهو يتأمل جدران الغرفة.. يغوص بجذوره الخفية في الماضي المشتعل بالأسرار، بالآمال والآلام، بالأفراح والشدائد، كأنه شاهد دائم التحفّز لأن يبقى مستيقظاً إلى الأبد.. كان يرسم ملامح الجد وهو يروي همومه وآهاته بكلمات لاذعة، قال وكأنه يُحدث نفسه "ما هذا الهراء، هل توتّرت أعصابي لهذه الدرجة!، أليس من الواجب أن أكون أصلب من ذلك!؟".. قام وتوجّه نحو صنبور الماء، غسل رأسه بماء بارد، حلق ذقنه جيداً، ارتدى ملابسه العسكرية، حمل سلاحه وفتح الباب، فجأة شعر بدوّار، ترنّح في مكانه وكاد يسقط على الأرض.. عاد وتمدد على

السرير، والصداع يمخر عباب رأسه مثل قارب وسط أمواج عاتية.. راح يتقلّب على الفراش بعد أن هجره النوم ثانية.. شعر أنه كالصدفة المرميّة على شاطئ البحر "كما قال".. غطّى ملامح وجهه بكفيّه وأخذ يستعيد من دواليب عمره الساعة التي تدق دون توقّف في صدره.. تسلّل إلى رأسه ذلك التنمّل الذي يسبق النوم، انتفض جسمه فجأة واستيقظ، أشعل سيجارة وراح يتأمل جمرتها في الظلام، تثاقلت أجفانه من جديد، أطفأ السيجارة، أغمض عينيه وترك الخيالات تأخذه إليها، ثم فتحهما وراح يبحلق في العتمة.. نظر إلى سقف الغرفة، قال إنه شاهده بأم عينيه يقترب كأنه يسقط ويطمره تحت ركامه.. وأضاف إنه اكتشف تلك الليلة ألواناً جديدة للعتمة، لم تكن سوداء، أغمض عينيه ثانية وراح يعدّد ألوان الظلام.. كان يتألم كثيراً وهو يتذكر المسافة الهائلة التي تفصله عن الوطن، لم يفكّر كيف جاء إلى بيروت، بل أخذ يفكر كم سيلزمه من الوقت ليعود من حيث أتى، ولم يتصوّر بتاتاً احتمال عدم العودة نهائياً.

تلك الليلة، أرخى حازم لخيالاته العنان، وترك نفسه تنقاد وسط أمواج المنفى والتشرد، وأغمض عينيه على كفن مثقوب بالنجوم والرصاص، وجسد ملفوف بعلم وطنيّ مُطرّز بالحرير الأسود والأبيض والأخضر والأحمر.

حسن

ذات ليلة، ولج حسن غرفتي، ألقى بجسده على السرير، وراح نغم شخيره يتواصل مع طلقات الرصاص المتقطّعة.

بعد منتصف الليل تأوّه وصحا، وراح يُفرغ ما في جعبته من حكايا.. قال إن تعليمه توقف عند المرحلة الثانوية، والتحق بالثورة لتحقيق رغبة والديه المنشودة باسترجاع الوطن.. وما بين جملة وأخرى كان يخفي بين ضلوعه كل آهاته وحسراته، ويئن تحت ألم سياط يجلد بها ذاته.. أغمض عينيه وراح يستعيد اللحظات التي غيّرت مجرى حياته، ليلتها طفق يتكلم عن أدق التفاصيل في حياته، قال إن أياماً طويلة وقاسية مرّت، تقلّصت فيها أحلامه، ولم يعد له هدف في الحياة سوى إنقاذ ما تبقّى له من آمال خائبة.. أحداث كثيرة لها ايقاعات خاصة مرّت بذاكرته خلال ثوان قليلة.. أحس بغبار يملأ جوفه ويخنقه.. استسلم لحالة الاكتئاب التي داهمته فجأة، وراح يستعيد الماضي منذ أن توفيت والدته في مدينة الزرقاء في الأردن.. أضاف بأن آلامه وصلت الى أعماق روحه وهو يرتمي على صدر أمه، وهي تعاني سكرات الموت، أثر مرض عضال حال فقر أسرته دون علاجها، كانت بحاجة الى عملية قلب مفتوح، ولم يكن باستطاعة العائلة تدبّر المبلغ الكبير.. كانت وهي في لحظاتها الأخيرة تحتضنه، وثيابها تمتص دموعه كأنها أوراق النشاف.. صدرها كان ملجأً

عميقاً لوجهه، كيف لا وهو المدلل الوحيد وأصغر أولادها.. يومها انهالت دموعه كزخّة مطر ثم انقطعت فجأة، صرخ "لا تتركيني يا أمي".. ولدقائق معدودة بقي صامتاً منكمشاً على نفسه في سكون مميت، مثل قنفذ.

حسن ما زال يذكر ذلك اليوم جيداً، ويذكر أنه بعد أن تم دفن والدته في اليوم التالي، اختفى في زقاق جانبي، وأخذ يترع الكأس بعد الآخر حتى ينسى فقر أسرته وموت والدته، ثم راحت أنفاسه تتلاحق، وأخذ يركض ويلهث إلى أقرب معسكر ودفن فيه نفسه.

في البداية كان يؤمن بالثورة، "كما قال"، لكنه اليوم لا يدري كيف تغيّرت أحواله، وكيف قادته ظروفه في بيروت الى الانسحاق، يخفي سلاحه تحت سترته الجلدية السوداء، ويغيب في شوارع الموت وسط المقاتلين.

في بيروت شعر أنه محاصر.. يعيش حلقة من الفراغ.. الفراغ من حوله، الفراغ في رأسه، في جسده، في عينيه وفي دمه.. شعر أنه فقد قدرته على التخيّل والاستمرار.. عاصفة من الذكريات تجتاحه دائماً، تلقيه في الفراغ، وتُلوّن عالمه بألوان الدم والقهر والموت.

توالت الخيبات عليه، وتلبّسته مثل مسامات جسده، تقلّصت بيروت في نظره وأصبحت صغيرة جداً، لم تعد تتّسع لعالمه، ودائماً يرى نفسه مثقلاً بالصمت والنفي والخيبة، متمنّياً لنفسه

الموت أو الرحيل عن بيروت.. ورغم أنه زعيم نفسه ولا ينتمي لأي فصيل، إلا أنه يشعر بأنه الخائب الوحيد في هذا العالم.

أضاف حسن وهو يربت عى صدره بأنه اكتشف منذ مدة أن قلبه، رغم كل هذه الأحداث، يخفق بالحياة.. فمنذ أن شاهد إحدى الفتيات قبل أكثر من شهرين في عمارة مقابلة لسكنه، تجلس قرب نافذة بيتها، وهو متعلق بها.. تفاهما بالاشارات وأيقن أنها تحبه، يومها اعتقد أنه انتصر على اليأس والموت وتعاسة الحياة، وراح يُرتّب أموره، وتراوده فكرة الاقتران بها والخروج من نفقه المظلم.

ذات صباح انتهز فرصة خروج والديها من البيت، وقرر أن يطرق بابها.. وحين فتحت له الباب وقف مشدوهاً وهو يراها تجلس على كرسي عجلات متحرك وتضع شرشفاً أبيض اللون على ساقيها.. عشيت عينيه ولفّهما غبش قاتم.. سألها:

– منذ متى وأنت على هذه الحالة!؟"..

انحدرت دمعة من عينيها، وبقيت محافظة على جلستها، وقالت دون أن ترفع رأسها:

– منذ أن سقطتْ إحدى القذائف على بيتنا في تل الزعتر، مات والداي وأُصبتُ أنا بشظية، وفي المستشفى عرفتُ أني سأعاني عجزاً مدى الحياة..

– لكني أراك تقيمين هنا منذ زمن.

– هذا بيت عمي، أعيش فيه مع زوجته منذ ذلك اليوم المشؤوم..

أضاف حسن: عيناي لم تُصدّق ما رأتا، وأذناي لم تصدق ما سمعتا، وبقيتُ لدقائق مذهولاً وهي تضيف: "هذه حقيقتي التي غابت عنك وأنت تمازحني من بعيد".

عيناي لفّهما غبش العالم من جديد، ضباب، دخان، غازات حارقة اجتاحتني مثل كتل الجحيم.. قذائف من كل الأنواع مزّقتني.. تعرّقتُ وانعقد لساني، وانسحبتُ من أمامها ألعن نفسي.

***

بعد أن أفضى حسن ما في جعبته، طفحت الآهات المخنوقة في صدره على وجهه.. صمت لحظة.. شعر أنه طائر ضلّ سبيله وراح يُغرّد وحيداً خارج سربه.. أشعل سيجارة وأخذ يهذي عن الثورة، قال إنها لم تعد تهمّه بقدر ما يهمّه أن ينسى سوء طالعه وحظه في الحياة، وتمنى لو يفقد ذاكرته، لينسى تلك الفتاة التي كانت تتمنى الموت للخلاص من الحياة.

***

فالح

شرب فالح كؤوساً كثيرة، وأحرق من لفائف التبغ ما يقارب العلبتين قبل منتصف الليل، كان حزيناً وحاقداً على كل شيء، وعندما أخذ يتحدث عن الأوضاع، شعرتُ أن ثمة خطر ماثل أمامي يهدّد بنهاية العالم، أو كأنما زلزال على وشك أن يقع.. ولم يكن أحد يعرف كيف ينام أو متى ينام، ويزعم أنه لا ينام على الإطلاق.

تحدث فالح كثيراً عن حياته تلك الليلة.. ومن وقت لآخر كانت تصدر عنه شتائم تثير الاشمئزاز، سباب قاس، وألفاظ سوقية عن غير قصد، وهو يتحدث بانفعال.

قال فالح أن لا أحد غيره يعرف كيف انتقل من استقراره الدائم في المفرق إلى مدينة عمان، لكن في قرارة نفسه كان يعتقد أن المفرق ليست هي الجنة التي وُعِد بها المؤمنون.. ولا أحد غيره يدري كيف عاش في عمان دون كلل، وهو يبحث عن وظيفة بعد الثانوية العامة.. لقد قرّر أن يجدها بأي شكل من الأشكال، وحين استقر به المقام، وجد نفسه يتخبّط في شوارع العاصمة، وعجب لأمر النساء الجميلات اللاتي يُتقنَّ الحزن والفرح، كما يُتقن الابتسامة والبكاء في آن واحد.

يتذكّر تلك الفترة، ويحاول أن يستعيد شتات الصور التي التقطها في ذاكرته المتعبة، كيف كانت بداياته.. عمان كانت الجرح والأمل.. يتذكّر الوحدة التي عانى منها طويلاً وهو يعيش

في غرفة صغيرة على سقف السيل، والبنطال الوحيد الذي كان يلبسه، وحين يتّسخ، يغسله ويكويه بطيّه تحت فرشة السرير.

أضاف فالح: لا أحد غيري يدري كيف قرّرتُ ذات يوم عاصف أن أتزوج تلك الفتاة التي تعرّفتُ عليها صُدفة، وكتبت لها أحلى القصائد وأروع الكلمات.. ولا أحد غيرها يعرف لماذا هجرتْني في يوم شتائي قارس، وتركتني وحيداً أتدثّر بالصقيع.. أنا الوحيد الذي أعرف كم تألمت وأنا أبحث عنها.. وحين وجدتها، كانت قد تزوجت من أحد أصدقائي المقرّبين.. يومها فقط اعترفتُ بهزيمتي الأولى، وانتصاري الموهوم على الحياة.

بعد ذلك اليوم، اصبح الوطن الذي أمارس فيه تسكّعي كارثة تهز أعماقي، رحت أفكر بالرحيل والعمل في الخارج، بعد أن اعترفتُ في قرارة نفسي أن مصيري قرّرته امرأة واحدة، وهبْتني الحلم، وسلبتْ مني الأمل.

ذات يوم وجدتُ نفسي وحيداً أرقب بصمت أرصفة عمان الاسمنتية التي خلت من المارة، والليل المقفر من النجوم يمتد ويُغلّف الجبال المتناثرة أمامه.. وجدت نفسي وجهاً لوجه أمام حرب ضروس بين فصائل المنظمات، حيث لا ناقة لي فيها ولا بعير، فقرّرت أن أهجر العرب لأبحث عن عرب آخرين.

أنا أتقن قراءة التاريخ وأحفظه عن ظهر قلب بدقائقه وتفاصيله.. أسرار التاريخ كلها تعيش في ذاكرتي، وأعرف أن

المثقفين ملاحقون في العواصم العربية.. ولأني كاتب سياسي معارض، فقد كنت أعرف أن الرصاص سيلاحقني، حتى لو اختبأت في جُحْر لا اسم له ولا عنوان.. لكل هذه الأسباب مجتمعة قرّرتُ الرحيل.. وجدتُ نفسي وجهاً لوجه أمام حازم رفيق الوظيفة والكتابة عن الجرح.. أقنعتُ نفسي بالرحيل مع المقاتلين إلى بيروت، معتقداً أني أستطيع أن أمارس الحياة هناك بحريّة.. وحين خرجت، قطعتُ حبل السرّة الذي كان يربطني بعمان، ولم يدُر بذهني أبداً أنني لن أستطيع العودة إليها إلا بقرار سياسي.

لم أتعوّد حياة الغربة والمنافي، وجدتُ نفسي في بيروت ملقى على قارعة الطريق.. كنت أتلقّط الأخبار، أحفظ الأسرار وأوظّفها لصالح مستقبلي الشخصي، وأكرّر على مسامع أصدقائي أنني جبان لأني تركت الوطن، لو بقيت في المفرق أرعى الإبل لحقّقت لنفسي الاستقرار والحرية.. وعندما كان يسألني أحدهم عن الجبهة التي أنتمي إليها، أردّد بفخر أني أنتمي إلى جبهة إنقاذ الأمة العربية من تشرّدها ونفيها وهزائمها المتكررة.. وفي قرارة نفسي أتمنى لو أملك قنبلة نووية ألقيها على الأرض العربية التي لم تعد تتّسع للمنفيين عن بلادهم دون سبب!.. ما ذنبي إن أحببتُ امرأة قبل مغيب الشمس، وخانتني قبل نور الفجر!.. ولماذا أقنعتُ نفسي بالرحيل عن البلاد التي تعيش فيها تلك المرأة!، رغم أني أعشق تلك البلاد وأحبها!؟.

***

صمت فالح فجأة وأخفى براحة يده دموعاً انحدرت على وجنتيه فجأة.. فالح، هذا الإنسان القارئ الكاتب الذكي، والمعلّق السياسي، تغيّر بين مدينة وأخرى.. أصبح يردّد عشرات الشتائم، ولسانه يلوك مئات القصص، تطوف بمخيّلته خطط كثيرة للعودة إلى وطنه، وهو يترع الكأس بعد الآخر.. شكّل رحيله عن عمان ماضيه وحاضره، وفكّر أن حياته المستقبلية وعمره المتبقّي سينتهيان قبل أن ينتهي الرحيل.. وكثيراً ما تمنى لو وُلد في زمان آخر.. وعندما كان يسأله أحدهم عن حاله، يجيب "ماكل شارب قارئ كاتب نايم، قايم"..

فالح ما زال يائساً من الوضع العربي، غاضباً، لا يعرف كيف تقود الأمواج المتلاطمة قاربه الصغير، التائه في عباب بحر الحياة.. ومع أن عجلة الزمان دارت وطحنت الكثير ممن يعرفهم في بيروت، إلا أن الموت جبن أمام صموده مع رفاقه، وبقي معهم كفريق واحد يندفعون للموت، فتُكتب لهم الحياة.

أضاف فالح: كانت الساعات تمر بطيئة متثاقلة، والأيام تمضي قُدُماً في بيروت، يولد فيها المرء آلاف المرات في الدقيقة الواحدة، والأخوة الأعداء يتقاتلون بلؤم وشراسة، يحتلون مواقع بعضهم ثم ينسحبون منها في الساعات التالية، يُفخّخون السيارات

ويُفجّرونها.. ينسفون البيوت، ويُدمّرون كل شيء يتحرك أو لا يتحرك.

لم أعد قادراً على فهم ما يدور حولي، القتال تحوّل ليصبح بين الفصائل الفلسطينية وقوات الكتائب اللبنانية.. ولا أعرف إلى أيّ طريق يتجه لبنان بعد أن تمرّد الجيش وتمزّق، وأخذ كل فرد سلاحاً وتمترس خلف أكياس الرمل يقيم الحواجز، يتصيّد المارة، يقتل على الهوية، ويحلم أنه سيصحو في اليوم التالي ليصبح زعيماً لفصيل قتالي!.

لم يعد لي، كما لم يعد للمقاتلين إلا الدفاع عن أنفسهم.. كانوا يحلمون بوقف القتال والخروج من هذه المتاهة، لكن وهم يعيشون حالات الموت اليومي والغياب، تطايرت أحلامهم وفقدوا ما تبقّى لهم من حقوق مشروعة في الحياة.

في المنفى كان ثمة مدينة مجنونة تضمّنا، إذ لا يمكن لمدينة عربية أن يتنفس فيها المقاتل بحرية، ويقول ما يشاء غير بيروت.. في بيروت يعرف المقاتل أن هناك رصاصاً يطارده لا يعرف هويته، لكنه على يقين أنه يخرج من عواصم الرعب، ويلاحقه إلى المنافي، لهذا كان يتنقّل كالأشباح بصمت وحزن، بقهر وذعر وحذر.

كانت الأشياء من حولي تقترب وتبتعد، تختلط وتتفارق، والشمس تبدو لي كمنجم فحم يحترق ويتناثر فوق رأسي.. عالمي

المحسوس أتعبني، بدأت أبحث عن وقت لأحلامي، عن لحظة خيال أعبّرفيها عن آمالي وأحلامي، ما لا أستطيع ايجاده في الواقع.. كنت أغمر رأسي بين يديّ، وأضغط بشدة، كأني أضغط على زناد قنبلة لأمنعها من الانفجار، ثم أغرق في تفكير عميق، وأتوارى في الغرفة، أقرأ الجرائد التي تُغطّي صفحاتها الإعلانات عن سجائر "المارلبورو والكِنت"، وصور المطروحين في الشوارع بجانب أحذيتهم، دون أن يجرؤ أحد على التقدم منهم، بفعل قناص سيطر على الشارع.. أغوص في أعماق نفسي، أكتب مذكّراتي، وعما يجول في ذاكرتي..

حازم رفيق متاهتي وتشردي، على النقيض مني تماماً، كان يقف في وجه الأعاصير، يتحدّى ويتأهب لإطلاق النار، يقول إنه لا يدري كيف يثق هؤلاء المتقاتلون في حواسهم فقط ثقة عجيبة، ولا يدري كيف ينخدعون بأذهانهم انخداعاً يُصوّر لهم أن في الحرب الأهلية حياة شعب!.. ويضيف إن البشر لن يصلوا إلى شيء إلا بالوجدان والخيال والأحلام.

تلك الأيام كنت أغيب بالساعات عن البيت، كنت أتردد على أحد البيوت في منطقة المزرعة.. ثمة حواء أتلهّف لرؤيتها وأتنفس عطرها يومياً.. أهرب من عالم القتال لأقتنص لحظات حلوة في عالمي الخاص.. أشتري لها الهدايا بكل ما أملك.. وفي اليوم التالي آخذ كل ما تطاله يدي من نقود في جيوب زملائي، وأعيد الكرّة ثانية.. وكثيراً ما كنت أقتنص لحظات لهوهم

وأحدثهم عن ضالتي التي تعمل ممرّضة في أحد المستشفيات، وأُردّد على أسماعهم أني ذاهب للحرب عند الفتاة التي أعادت لقلبي نبضه من جديد، وأقصد بذلك حرباً تصالحيه مع الحياة لا مع الموت.. وفي بيتها أجلس الساعات الطوال مع والدتها ننتظر عودتها، نحتسي القهوة، ويضيع الوقت ووالدتها تقرأ لي طالعي من خلال بقايا القهوة في فنجاني، ثم تقوم لصلاة الفجر وتدعو لابنتها بالتوفيق والعودة سالمة.. وفي آخر الليل أعود مقهوراً وحزيناً سيراً على قدميّ وجيوبي فارغة، وأعلن أن زمني توقّف عند ملابس الممرضات الشرعية في زمن التعري.. أجلس لحظات قليلة، ثم أهرب إلى حسن نزفر ونتوجّع، ونشرب معاً حتى نغيب عن الوعي.

***

موظف السفارة

خلال فترات وقْف إطلاق النار الهشّة، كنت ورفاقي نعود إلى غرفتي المعتمة، ونغرق في أحلامنا.. نشعر أننّا مرصودون للموت، نحمل أكفاننا على أكتافنا مثل أي مقاتل، وننتظر الرصاص القاتل مجهول الهوية في زمن التيه والغياب.

في الغرفة اليتيمة رقد حسن وحازم وفالح بملابسهم العسكرية متقاربين.. كانوا ينامون وعيونهم مفتوحة.. فجأة صحا حسن من رقاده وجلس، وراح يُحدّث فالح عن عجزه أمام فتاة أحلامه العاجزة، وعن حظه العاثر في الحياة.. بينما تحدث فالح عن الحب زمن الرصاص والموت والقهر والتشرد.. وفي محاولة لنسيان همومهما قادتهما أفكارهما للمجازفة بجولة نحو الشاطئ وسط الرصاص والموت.

كان النوم يتسلّل إلى عينيّ تلك اللحظة بعد أن هزمني التعب والنعاس.. شعرتُ أن جسدي تحوّل إلى عجينه من الخبز المنقوع بالماء، وهما يغادران الغرفة.

أشارت عقارب الساعة إلى التاسعة صباحاً عندما صحوت.. شاهدتُ فالح وحسن يشربان الشاي الثقيل ويتهامسان، وحين سألتُ عن حازم، نظرا إليّ وغاصا في صمت مريب.. قلت: "خُيّل لي أنكما غادرتما الغرفة في الليل!".

ضحك حسن بصوتٍ عالٍ وقال:

- هذا المجنون، أخي في الإدمان، "وأشار إلى فالح"، يعتقد أن النساء طيور تطمح إلى الحب والحرية، لكنها تعيش في أقفاص، وغاب عن ذهنه أن المرأة هي الشيطان الذي سلّطه الله على الرجل في الأرض..

اندفع حازم إلى الغرفة منفعلاً وقطع استرسال حسن، قائلاً:

- هل سمعتم الأخبار!.. تتحدث الإذاعات عن بيان صادر عن السفارة الأمريكية في بيروت، يُعلن عن خطْف ضابط أمريكي في شارع الحمراء، وهدّد البيان الخاطفين بأنهم سيدفعون الثمن غالياً إن لم يعد سالماً.

تبادل حسن وفالح النظرات، وغرقا في ضحكة طويلة وهما يضربان أكفّهما ببعض.. قال حسن:

- إذن هذا الملعون ضابط!، لقد شككتُ في أمره منذ اللحظة الاولى. بينما قال فالح ساخراً:
- لقد عوّضنا الله عن تلك الساقطة بضابط أمريكي.

فيما بعد سردا الحكاية.. كانا قد ترافقا إلى ملهى ليلي في شارع الحمراء بدل أن يذهبا إلى الشاطئ، ولم يُصدّق فالح عينيه وهما تلاحقان فتاته عبر الأضواء الحمراء تتبختر بمشيتها ويتراقص جسدها تحت الثياب الفاضحة، وتُقدّم لهما الشراب، وعندما فوجئت بوجوده تسمّرتْ لحظة، ثم تراجعت إلى الوراء، لكنه أمسك بمعصمها وأخذ يُمعن النظر في وجهها، ولم يُصدّق أن ذلك

الوجه الملائكي الذي رسمه لفتاة تعمل ممرّضة، يمكن أن يتحوّل إلى وجه دمية تملؤه المساحيق والأصباغ في بار ليلي، وحين تراخت يده عن معصمها، انسحبت وتركته يحرق أفكاره مع سيجارته، ويترع كأسه للحظات قبل أن تعود وتهمس في أذنه أنها ترغب بالخروج معه لتشرح له موقفها.. فجأة تعرّق جبينه واستحال وجهه بلون الجمر، وطلب منها الجلوس بجانبه لتشاركه شرابه، لكنها رفضت وأصرّت على انسحابه معها دون فضائح.. تناول الكأس الذي أمامه وشربه جرعة واحدة، شعر بارتعاش في يده، تناول الزجاجة وصبّ كأساً آخر، رفعه بيده، وقبل أن يلامس شفتيه رشق ما بداخله على وجهها وراح يسبّها ويلعنها بكلمات سوقية، ثم هجم عليها محاولاً ضربها ممّا تسبّب في مشاجرة يدوية ولكمات متطايرة مع قبضايات الملهى وحرّاسه الليليين.. ولم ينقذه من ورطته غير حسن الذي سحب سلاحه من تحت سترته الجلدية وراح يطلق النار في الهواء، وخرجا من الملهى مخمورَيْن لا يعرفان لهما طريق.

في الشارع وجدا نفسيهما وسط إطلاق نار شديد، شعرا أنهما مطاردان.. لاذا إلى شارع فرعي ووقفا حتى يتوقف إطلاق النار، لكن إطلاق النار لم يتوقف.. سقطت طلقات وتراشقت على الجدران القريبة، وتبيّن أن مجموعتين تتبادلان إطلاق النار وهما وسط رصاص الطرفين.. زحفا وصليات كثيفة من الرشاشات تتطاير فوق رأسيهما وكمنا خلف جدار.. فجأة ظهرت سيارة

حديثة الصنع بأضواء خافتة على الشارع الجانبي وتوقّفت.. ترجّل منها رجل باهت المعالم في الظلمة ووقف جانباً يرصد المكان.. كان يقف بشكل لا يظهر معه سوى رأسه، وكأنه يبحث بعينيه عن شيء ما.. راقب مواقع إطلاق النار والمقاتلين ثم عاد إلى سيارته، وقبل أن يهدر محرّكها ركض حسن نحو السيارة وقفز بداخلها.. صفق بابها وأشهر سلاحه على السائق طالباً منه الهدوء والتقدم.. فوجئ السائق وذُعر ولم ينطق بحرف، وتحت تهديد السلاح تحركت السيارة ببطء.. ركض فالح وقفز بداخلها وجلس في المقعد الخلفي.. في الطريق طمأن حسن السائق أنه بأمان إذا أوصلهما منطقة الجامعة العربية، لكن السائق بدا وكأنه لا يفهم شيئاً ولا يعرف وجهة سيره.. سأله حسن "من أية منطقة أنت؟"، لم يسمع جواباً أيضاً.. نظر إلى وجه السائق وتفحّصه لحظه ثم دفع بمقدمة الرشاش إلى صدغه الأيمن، وأخذ يدلّه على وجهة سيره حتى وصل مستشفى المقاصد.. وفالح يغوص في المقعد الخلفي يُفكّر بأحداث تلك الليلة، وكيف استطاعت تلك الفتاة أن تخدعه طيلة الفترة السابقة!.

"استوب" صرخ حسن فجأة، ارتعش السائق وداس على الكوابح بحركة آلية.. صرّت دواليب السيارة لعدة أمتار ووقفت في عرض الشارع، تنبّه فالح لما يجري داخل السيارة وراح ينظر باستغراب ودهشة.. مدّ حسن يده وتحسّس جيوب السائق وملابسه.. وجد بحوزته مسدساً صغيراً كان يخفيه تحت إبطه

الأيسر، ولم يجد معه أية وثيقة، انتزع المسدس وقال: "من أي فصيل أنت؟".. لم يجب السائق ثانية.. تحدّث فالح معه باللغة الإنجليزية، لم يجب أيضاً.. دفعه حسن بمقدّمة سلاحه وأجبره على الترجل من السيارة، ثم قاده عبر طريق جانبي بين دوي الطلقات إلى غرفته في مخيم صبرا، وفالح الذي وجد نفسه شريكاً لحسن في عملية الخطف يرافقه، ويطلب منه ألاّ يتهوّر في تصرّفه مع السائق، لكن حسن أصرّ على معرفة السائق وما الذي كان يدفعه لمراقبة المتقاتلين.. في الغرفة وحسن يقيد يديّ السائق قال الأخير بلهجة عربية مكسّرة بأنه من موظفي السفارة الأمريكية.. فطلب فالح منه الهدوء والسكينة حتى ينظران في أمره، أو يتم تسليمه للقيادة.. وعند الصباح كمّما فمه وأغلقا عليه الباب، وعادا يحتفلان بصيدهما الثمين في غرفتي.

وقف حازم وطلب رؤية المخطوف ليتحقّق من هويته، وعندما عرف أنه ضابط في حرس السفارة الأمريكية، سرّب لإحدى وكالات الأنباء بياناً قال فيه أن "الضابط الأمريكي بخير، وإن المقاتلين يطالبون بالإفراج عن الأسرى الفلسطينيين في السجون الإسرائيلية مقابل الإفراج عنه".. بينما قام حسن بإخفاء الضابط في سرداب أرضي بعد أن نقله إلى مخيم شاتيلا، ولم يُسلّمه إلى القيادة كما اتفق مع رفاقه.. عند المساء أصدرت القيادة أمراً بالبحث عن الضابط وإيجاده حياً مهما كانت النتائج.

في الليل عاود حسن شُرب الكحول كعادته، وتفاخر أمام بعض المقاتلين أنه الخاطف، وإنه البطل الذي تبحث عنه كل فصائل الثورة، ولن يُسلّم الضابط للقيادة حتى تذعن إسرائيل لطلباته.. وخلال ساعة زمن حاصر المقاتلون غرفته، لكنهم لم يجدوا فيها أحداً.. وبدوْره استطاع الفرار والتنقل مع الضابط من مكان إلى آخر، دون أن يستطيع أحد العثور عليه أو على المخطوف.. بعد خمسة عشر يوماً من ملاحقته، وبعد أن يئس من التخفي عن أعين مطارديه، وعن الرصاص الذي يلاحقه، شرب حتى ثمل، ثم توجّه للقيادة.. ألقى بسلاحه جانباً وسلّم نفسه، بعد أن روى لهم حكايته وأخبرهم عن مكان وجود الضابط.. صادروا سلاحه وأودعوه السجن، وتولّت القيادة أمر الضابط الذي كان حسن يخفيه في قارب صيد صغير وسط البحر.

***

مريم

انقضت أيام خمسة لم أشاهد خلالها مريم، أرّقني الشوق اليها، فتحتُ باب الغرفة ووقفت أرقب رؤيتها.. اندفع شاب في حوالي الخامسة والعشرين من عمره نحو المدخل، صعد درجات السلم واختفى كلمح البصر داخل البيت.. اندفعت ثلوج سوداء لطخت وجهي وحجبت عن عينيّ الرؤية، تسرب القلق الى نفسي ووجدت الغيرة لها حيّزاً في أعماقي.. أحسستُ إحساساً عميقاً أن لهذا الشاب دوراً في حرماني من رؤيتها.

نار توقّدت في أعماقي وأشعلت روحي.. تصبّب العرق من جبيني وامتد الى بقية جسدي.. تساءلت في قرارة نفسي عمّا يقول هذا الشاب وعما يفعل!.. وما علاقته بها!.. تراخت أعصابي، تشوّش عالمي، وشعرت أني بأمسّ الحاجة لأن أعيش صفاء عينيها، بحاجة الى الابتسامة المرسومة على زوايا فمها.. أرعبني التفكير، ولا أدري كيف قادتني مخيلتي تلك اللحظة الى غيرة أوصلت أفكاري حدّ القتل، والتخلص من هذا الشاب.

بعد منتصف الليل تقاطر الرفاق الى غرفتي.. تحدثتُ عن همومي وأغرقوني في همومهم.. وعندما عرفوا حكاية غيرتي من خصمي الجديد، ضحكوا كثيراً، لكنهم أبدوا تعاطفاً معي وتوعّدوا بتلقينه درساً لن ينساه.. وفي ليلة تالية، احتجزوه في

غرفة حسن، وهدّدوه بالقتل إن لم يبتعد عن بيت أبي سعيد.. ومع أن عقله رفض أن يستوعب ما قيل له، إلا أنه أخذ التهديد محمل الجد.. وحين خرج من الغرفة كان العرق يتصبّب من جبينه ووجهه وسائر أنحاء جسده.

***

استلقيتُ على السرير، تراءى لي وجه مريم وغمرني بـهالة من ورود الدنيا وزهورها البرية، وعلى حين غرّة انهالت على ذاكرتي مجموعة من الأسئلة عن نهاية هذه العلاقة وسط التيه والحرب، وحين لم أجد جواباً أقنع به نفسي، تجاهلتُ بقية الأسئلة، وتركت نفسي تغرق في بحر هواها.

اختفى غريمي منذ أن هدّده الرفاق، وقد عرفت من أبي سعيد أنه قريب له كان يدرس الهندسة في القاهرة، وبعد أن تخرج في الجامعة عاد إلى بيروت، ثم تعاقد مع إحدى الدول الخليجية، وغادر بيروت دون أن يراه أحد.

ثمّة خطوات تجيء وتروح فوق سطح الغرفة، قمت ووقفت قرب الباب.. ظهرت لي والدتها، قالت: تفضل، أنت صرت واحد من أهل الدار..

بعد أن جلستُ قلت بلا مقدمات بأني أنوي خطوبة مريم ولا أدري كيف أتصرف!.

نظرتْ إليّ بدهشة واستغراب وقالت: "أنت مقطوع من شجرة، ما إلك أب ولا أم أو أقارب يطلبوها!".

تلعثمت وعقد سؤالها لساني، فلم يخطر ببالي كلمة مما قالت..

- أنتِ تعرفين أن أهلي وكل أقاربي في عمان..

قاطعتني بامتعاض: "أنتَ بتفكّر بنات الناس لعبة!، هات وخذ، هل معك مهرها أولاً!، وهل باستطاعتك أن تفتح لها بيتاً، وهل تقدر على مصروفها!، ولّا بتفكّر الحب وحده يكفي!".

ألْجمتني الأسئلة.. شعرتُ وكأن زخات من الرصاص تخترق جسدي وتستقر في صدري، تماماً مثل خيبات الأمل التي تتلبّسني.. لم أعرف ماذا أقول، وقبل أن أنسحب أضافت:"روح لأبوها واحكي له موضوعك، فالحل والربط في يده".

***

في الغرفة شعرتُ بخيبات الأمل تطارد أحلامي.. فكّرتُ بالرحيل ومغادرة المكان، ليلتها لم أنم، ظللتُ أتقلب على الفراش وطائر الفراق يحوم حولي.. شعرتُ أن فراقها قهْر يسافر في عروقي كموال يسكنه وجع الشوق.. في الصباح بحتُ لزملائي عما كابدته طيلة الليل، وعن رغبتي الاقتران بمريم، فقال فالح ساخراً: "لا تورّط نفسك وتتزوّج، كلهنّ بنات آوى".. ومع ذلك وقفوا بجانبي، وتمت خطوبتي على مريم،شرط أن لا يتم الزفاف

إلا بعد أن تهدأ الأحوال، وأجد عملاً مناسباً، وأفتح لها بيتاً "تتستّت فيه" كما قالت أم سعيد.

***

مرايا الحصار

تلك الايام، كانت بيروت تنام على اصوات قذائف المدفعية، وتصحو على راجمات الصواريخ.. وأصبح سعر الإنسان الذي يعيش على أرض لبنان ليرة لبنانية واحدة، هي ثمن الرصاصة الصغيرة الصفراء، التي تباع على العربات المتنقلة في الطرقات والشوارع.. صارت الرصاصة هي الحياة، وهي الموت والدمار والرعب ولغة الحوار، ووسيلة التعبير أمام الطرف الآخر.

أجواء بيروت، أمكنتها وشخوصها سبحت في جو غائم من الغرابة.. الناس لبسوا ثياباً سود في الأعياد، والتقوا في المقابر التي أصبحت أكثر رحمة من البيوت.. الحرب دفعت الناس إلى الشيخوخة المبكّرة والعجز.. كبر الأطفال أيضاً وهم ما زالوا صغاراً جداً.. امتدّت المذابح إلى كل مخيمات المهجّرين عن أوطانهم، وتعرّت مخيمات اللاجئين تحت وقع القذائف.

أشجار الحرج الفاصل بين المتقاتلين، تشبه في الليل صفاً من الرجال وقفوا للتعزية بميّت، وفي مؤخرة الحرج كان رجال الكتائب يطلقون النيران، والقذائف تنفجر قرب المقاتلين لهباً أسوداً.. يلتصق المقاتلون بالأرض ويردّون على النيران بنيرانٍ أقوى من رشاشاتهم ومن مدافع الهاون، وكانت من الكثرة بحيث

خطرت لفالح فكرة سخيفة بأن الطلقات لا بُدّ ويصطدم بعضها ببعض في الهواء.

مقبرة الشهداء لم تسلم أيضاً من القصف، دكّت القذائف شواهد القبور، مزّقت الجثث وتطايرت أشلاء من اختبأوا في القبور المحفورة والمفتوحة من جراء القصف.

القتال يزداد عنفاً وسوءاً يوماً بعد آخر، صار الموت والحياة يُقاسان بالأمتار فقط.. دماء كثيرة سالت، وحصد الموت الأبرياء قبل حملة السلاح.. تفرقت أسراب المقاتلين، بدأوا يتساقطون ويتقهقرون نحو الليل والموت.. كل شيء في الحياة يتناقص.. المطر هو احتضار الغيوم.. القمر يصغر ويصبح هلالاً، والأصدقاء يتفرقون ويتيهون في عالمهم فرادى..

وليد رحل فجأة الى اوروبا في مهمة عمل سرية..

زياد غادر بيروت للعمل في دولة خليجية، بعد أن أعلن صراحة أن مسيرة النضال ضلّت طريقها في متاهات لبنان.. والمتقاتلون يهيمون وسط شوارع صاخبة كأنها أمواج عاتية، من غير رابط بينهم سوى الشقاء والقتال والموت، يتبادلون الرصاص، وينهالون بألوان السباب والشتائم عبر مكبرات الصوت بعضهم على بعض، ينبشون خصومات قديمة ويتشاجرون بمدافع الهاون وقذائف ألآر بي جي.

***

الجو كان حاراً خانقاً والساعة تقترب من الثانية بعد منتصف الليل، وأنا أعدّ لنفسي فنجاناً من القهوة، وأبحث بين موجات المذياع عن نشرة أخبار.. توقّفت عند أغنية فريد الأطرش "سألني الليل" ورحت أدندن مع اللحن.. ومع ذلك ظلت أصوات الطلقات النارية تطغي على صوت الأغنية.. وبينما كنت أحتسي القهوة شاهدتُ دفتر فالح الخاص بمذكراته اليومية التي كان يكتبها أثناء وقت فراغه.. كان جُلّ اعتقادي أن فالح يكتب سيرة حياته، أو قصة حبّ جديدة ألْهبت مشاعره، وغيّرتْ مجرى حياته، وإذ بي أكتشف أنه يكتب صفحات من تاريخ الثورة والمناضلين.

في الصفحة الأولى قرأت: "القدس هي ميزان حرارة الوطن العربي، وهي بمثابة القلب في جسم الأمة العربية.. إذا كان القلب ينعم بصحة جيدة، فالوطن العربي الكبير ينعم بالأمن والاستقرار".

في الصفحة الثانية "الثورة ليست عصابة تقاتل من أجل أن ينجو أفرادها بأنفسهم بأية وسيلة ممكنة.. الثورة عمل واعٍ يتحرك من أجل إنجاز أهداف معيّنة.. وفي سبيل هذا الهدف يهون الاستشهاد..

لقد أطلّت الثورة على العالم لتقول أن المستحيل بفعل الثورة الأصيلة يُصبح ممكناً.. وإن فلسطين يمكن أن تتحوّل إلى نموذج

لا للتعايش بين مختلف الأعراق والأديان فقط، بل إلى مجتمع يؤمن بالتنوع من خلال الوحدة.

إن مثل هذا المجتمع العلماني الديمقراطي الذي ارتسم في فكر رجال المقاومة، هو تعبير عن الانسجام الداخلي لتكامل الإنسانية فيه.. إن فلسطين المستقبل وإن كانت جزءاً من فلسطين كلها، لن تقوم بقرار دولي بقدر ما ستقوم بإرادة البنادق وعزيمة الثوار.. هناك فارق كبير بين الأمس واليوم، في الماضي كان الوضع الفلسطيني متمثلاً بصورة اللاجئ المطالب بأبسط مقوّمات الحياة، أما الآن فاللاجئ أصبح مقاتلاً، ومطالبه أصبحت تجد من يصغي إليها".

الصفحة الثالثة كانت بيضاء، أما الرابعة فكتب فيها:

"جنود الاحتلال يقلعون منازل أهل الجنوب اللبناني، كما قلعوا بيوت الفلسطينيين في الداخل.. لقد حاولوا قلع الشعب أيضاً من الجنوب، لكن الناس ما أن يغادروا حتى يعودوا من جديد، لأن جذورهم باقية وعميقة في باطن الأرض.

إن محاولة قلع جذورهم يولّد عندهم العنف والكُرْه.. إن كره المقاتلين لأعدائهم الذين اغتصبوا أرضهم، وشردوهم عن أوطانهم ولّد في ظلماتهم النور.. المقاتل يعرف أنه ما دام يكره أعداءه، فإنه لا يمكن أن يخاف.. الكُرْه يضيء السراديب المعتمة في حياته".

في الصفحة الخامسة:

"الجنود الإسرائيليون يتسابقون على القتل، إنهم مصابون بمرض جنون العظمة والشعب المختار، جنون القتل والحدود الآمنة، خرْق القوانين وهوس التقتيل لكل أبناء العرب.. إن طريقهم مقفلة إلى الأبد طالما ينزعون إلى السيطرة، ويعيشون في وهم الكذب والخداع".

في صفحة أخرى كان هناك محاولتين للرسم بقلم رصاص.. الأولى صورة لِقِدْرٍ كبير تحته نار مشتعلة وبداخله ماء يغلي أو زيت، وفيه أطفال ونساء وشيوخ، يرفعون أيديهم ويحاولون التسلّق خارج القدر.. وفي الخارج وقف جندي إسرائيلي عملاق يحمل قصبة مدفع ويحاول إعادتهم إلى الداخل.

المحاولة الثانية كانت لرجل مغمض العينين يحمل مسدساً بيده اليمنى، في محاولة لإطلاق النار على رأسه الذي يحتضن في داخله خريطة الوطن العربي.

على الصفحة الأخيرة من الدفتر، ظهرت مربعات لكلمات متقاطعة خطّ عليها خطوطاً سوداء متقاربة، ودوائر أخفت ما تحتها من كلمات، بينما ظهر رقم السنة الميلادية ١٩٨٢ واضحاً يملأ الصفحة بخط عريض ومتعرّج.

***

صباح اليوم التالي شنّت القوات الإسرائيلية حرباً على المقاتلين لتصفية الثورة الفلسطينية، وخلال ساعات الصباح الأولى تقدمت بكل أنواع الأسلحة إلى جنوب لبنان.. مدن الجنوب كانت أول أهدافهم، ومخيمات اللاجئين بدأت تُمشّطها الجرافات.

أهل الجنوب أخذوا يتوافدون على بيروت طلباً للملجأ والحماية.. منحهم الجنود حق التشرّد وحرية الضياع، وراحوا يطاردونهم إلى بيروت.

في الضاحية الجنوبية من بيروت، جلس فالح على صخرة قريبة وقد أسند رأسه على ماسورة الكلاشن، وراح ينفث دخان سيجارته، ويرقب البحر والأشجار الممتدة على مرمى بصره.. يُتمتم ما يحفظه عن ظهر قلب من الإصحاح التاسع والخمسين "خيوطهم لا تصير ثوباً، ولا يكتسون بأعمالهم.. أعمالهم أعمال إثم، وفِعل الظلم في أيديهم.. أرجلهم إلى الشر تجري وتسرع إلى سفك الدم الزكي..أفكارهم أفكار إثم.. في طريقهم اغتصاب وسحق.. طريق السلام لم يعرفوه وليس في مسالكهم عدل.. جعلوا لأنفسهم سبلاً معوجّة، كل من يسير فيها لا يعرف سلاماً".

قاطعه حازم وقال: "النصر لا ينـزل من السماء ولا يخرج من باطن الكتب، إنما تصنعه أيدي المقاتلين المخلصين.. السيف أصدق أنباء من الكتب"..

بدا على فالح وكأنه أوشك أن يرد بكلمات عابسة صارمة، لكن الصوت الذي تكلم به كان صافياً وهادئاً بشكل غير متوقع، قال:

- البيت المنقسم على نفسه ساقط لا محالة.
- لكن القتال مفروض علينا، نحن لم نختره ولم نؤقّت له، هذه معركتنا الأخيرة، إما أن نصمد أو نموت.. التاريخ لا يرحم المهزومين.

كل شيء باطل أمام مذراة المعركة، ولا أحد يُتقن الصمت عندما يتحدث الرصاص.. شعر فالح أن المدافعين يلجون نفقاً طويلاً ومظلماً، وأقدامهم حافية تتخبّط بالصخور النارية المتعرّجة والحادة كالسكاكين، همس لنفسه "عصور الظلام عادت من جديد"، وسحب نفساً عميقاً من سيجارته، ثم نفث الدخان من فمه سرعان ما تحوّل إلى حلقات ودوائر متقطعة، قال بيأس: "إننا مهزومون اقتصادياً وعربياً".

شعر حازم أن فالح ينقل إليه كآبته ويأسه بكلمات أقوى وألعن من تساقط القذائف.. قال:

- وكأنك هزيمة جديدة تُضاف إلى الهزائم العربية المتكررة.

فجأة انبسطت أسارير وجه فالح وقال:

- شُرُم بُرُم، قل انتصاراتنا العربية المتكررة.. نحن لم نُهزم مرة واحدة!..

لم يكن فالح يخاف القتال، لكن قَلَقاً أكثر من المعتاد كان يتملّكه قبيل المعارك الليلية، أضاف:

- القتال في الليل ليس بالعدد، بل بالمباغتة.

ما زلت أذكر تلك الأيام العصيبة جيداً، وأتذكر كيف نجوتُ من الموت أكثر من مرة، ذاكرتي حبلى بالتفاصيل، ولم تعد تقوَ على النسيان.. تلك الايام، توغّلت القوات المعادية مسافات كبيرة داخل لبنان، وشنّت الطائرات قصفاً جوياً عنيفاً قبل المعركة على الضواحي الجنوبية من بيروت، قصفت المطار الدولي والمدينة الرياضية وخلّفت دماراً كبيراً.. أطفال بيروت صاروا أهدافاً للطائرات الحربية.. المياه التي لا لون لها ولا طعم ولا رائحة، أصبحت في حصار بيروت بلوْن أزهار اللوز والبرتقال وطعم الحرية، ورائحة القهوة الساخنة.. الناس ماتوا عطشاً، وصواريخ الطائرات هدمت العمران، دفنت جثث الأبرياء في قاع الأرض، وحفرت آباراً للمياه الجوفية.. وعندما تجمّع الأحياء حولها، تدرّب طيارو إسرائيل وأمهر قادتها على إصابة الأهداف المتحركة بدقّة.. اشتعلت النيران في العديد من البنايات المكتظة بالأطفال والنساء والشيوخ، قفز بعضهم من الطوابق العليا محاولين الهرب من الموت حرْقاً، واختيار الفناء بطرق أخرى.. وكان الأطباء يعالجون الجرحى على ضوء ذبالة شمعة دون كهرباء، دون ماء، دون المعدات اللازمة ودون المطهرات الضرورية.

أصبح كل شيء في بيروت محاصراً، الماء، الهواء، الحرية والطيور.. كانت العين ترى بوضوح كيف تحوم الطائرات، وتنقضّ على بيروت، وكيف تُغطي السماء انفجارات القذائف المضادة للطائرات بطبقة كثيفة، شبيهة بخيوط دقيقة.. بنايات بأكملها دُمّرت على من فيها تدميراً كاملاً، وكان يُعتقد أنها مقرات للقيادة، لكن تبيّن أنها عمارات سكنية لا يوجد فيها مسلّح واحد.

أصبحت بيروت مدينة محاصرة، تنفجر القذائف في شوارعها كل ثانية، وكانت الثواني تُعد بالساعات، وأطول يوم في تاريخ الحروب بدأ ولم تتبيّن له نهاية.

انتهى القصف الجوي بطريقة غريبة، بسيْلٍ من ألْسنة اللهب الذهبية التي سقطت من الغيوم، مثل اللحظات الختامية لاحتفال رياضي كبير.. وفي البنايات المُدمّرة بدأ البحث عن الأحياء بين الأنقاض.. وحين يئس الجميع من وجود أي أثر للحياة تحتها، وجدوا طفلة في الثانية من عمرها ما زالت على قيد الحياة، تلتهم ثدي أمها المنتفخ، وتحاول الرضاعة منه.

***

في الليل، جلستُ مع رفاق السلاح نستمع إلى الأخبار من خلال مذياع صغير، كان أحد المقاتلين يحمله معه دائماً.. مرفأ ذاكرتي ما زال يختزن أحداث تلك الليلة جيداً، كما يختزن صورة

ذلك الطفل الذي كان يأتينا كل صباح من أحد البيوت المجاورة، يحمل لنا إبريقاً من الشاي، ويُحدّق دائماً في المذياع.. لم يكن يخاف القصف رغم أنه لم يتجاوز السابعة من عمره، وعندما نعيده إلى بيته كان يطلب المذياع من المقاتل، والمقاتل يعده أن يعطيه المذياع حالما تنتهي الحرب.

أشارت عقارب الساعة إلى الواحدة والنصف بعد منتصف الليل، وما زالت قذائف المدفعية بعيدة المدى تتساقط على كل أحياء بيروت بلا توقف، كان الرفاق يجلسون القرفصاء بتحفّز قريباً من خط التّماس مع العدو، يرصدون حركات الجنود ومدى تقدّمهم، تناول المقاتل سيجارة ثم أخرج من جيبه قدّاحة وقدحها عدة مرات، وحين أشعلها، استدار مُعطياً ظهره للهواء الخفيف، وانحنى لُيشعل سيجارته.. فجأة سقطت قذيفة وانفجرت على بعد عشر خطوات من مكان وجودنا، أصابت شظية رأس المقاتل وسقط بصمت قرب حازم، ارتجف جسمه مرّة واحدة ثم جمد، تراخت يده عن البندقية وتوقف قلبه عن الخفقان، والسيجارة ما زالت في فمه تحترق.

قفز أحد المقاتلين من خلف المتراس فجأة، تخطى البندقية المطروحة جانب الجثة وركض عدة خطوات، انطرح وأخذ يطلق النار على رشاش متقدم، نهض وركض عدة خطوات أخرى في الظلام وعاود إطلاق النار، توقفت رماية الرشاش لحظة ثم عادت تنطلق من جديد، صاح المقاتل صيحة خافتة من

خلال أسنانه وقام بحركة فجائية ليبعد نفسه عن مدى رماية الرشاش، لكن جسمه لم يطاوعه ولم يتحرك بعد أن نخرت الطلقات جسده، أغمض عينيه وبقي راقداً دقائق معدودة، يغيب فيها عن الوعي تارة ويفيق أخرى، ثم صكّ على أسنانه من الألم، سحب نفسه الأخير ودخل في غيبوبة أبدية.

صُور باهتة، مرايا محدّبة وأخرى مقعّرة، وذكريات قديمة ما زالت تجري في مؤخرة رأسي وتغتصب ذاكرتي.. فقد عوّدتني الحرب اللعينة على أفظع الأشياء، عوّدتني أن أتقبّل أن يُمحى من ذاكرتي أناس أُغتصبت أرواحهم، كانوا قبل عشر دقائق يتحدثون ويتحركون ويضحكون.

تلك الليلة، كانت الثواني تزحف كالساعات، الدبابات تزحف والجنود يتقدمون، أخذ مدفع رشاش يرمي برصاصه من جديد، بتتابع قصير المدى وبسخط شديد، وحده ذلك الرشاش وسط القصف والموت كان يملأ المجموعة بالتخدشات، طوى حازم جذعه وأطلق صلية طويلة من رشاشه على مدى تقدم الجنود، سقط واحد، وواصل آخر السير عدة خطوات، ثم سقط ناشراً ذراعية وسط الشارع، عاود حازم إطلاق النار نحو المدفع الرشاش من جديد، وحين لم يجد فائدة من مقاومته، انسحب إلى بيت قريب طالباً مني حمايته، فجأة سقطت قذيفة على بعد أمتار مني وانفجرت، أحسستُ بألم حاد في ساقي، وشعرت أنها شُلّت عن الحركة.. وعندما حاولتُ تحريكها، أحسستُ بتمزّق اللحم

وحرارة الدم من خلال الجرح المفتوح، ومع ذلك لم أتوقف عن الحركة والزحف، لم أفكر بشيء، كنت أترقّب بجنون ترقّباً حيّاً أين سأصل!، صار التفكير مبارزة مع الزحف، الموت رابح أم خاسر، ليس الموت أمراً جدّياً إلى هذا الحد، كان هناك ارتباطات بين الأفكار.. الهروب من الموت، الاختباء وإطلاق النار.. الألم هو سيد الموقف، هو الذي سيطر على تفكيري تلك اللحظة.. لا تصمد أية فكرة أمام لطخات الدم.. تساءلتُ كم سيتأخر موتي!، أرعبتني الفكرة، لكني تصوّرت بعدها سلام العدم، الانتهاء من النزوح والتشرد، وتنفّس الغبار والرحيل والارتطام بالجثث والأشباح.. أخيراً استسلمت كما كنت أفعل في طفولتي، حين كنت أختبئ من غضب والدي في الفراش، أتكوّر وأتقوقع في زاوية وسط فراشي تحت اللحاف.. بعد لحظة شعرت بحرارة أنفاسي، أحسست أني ما زلت على قيد الحياة.. تحسّستُ صدري أتأكد من أن شيئاً ما زال يخفق فيه، لا لم يتوقف بعد، فقط ألم عميق يعتصر ساقي، نزيف حاد يصفي دمي، ألم يأتيني من الماضي السحيق، من الصراعات والهزائم التي حاول الآباء والأجداد عبثاً أن يحوّلوها إلى انتصارات، لعنة عبر الجينات امتدت وتطاولت وتوالدت، انتقلت من الأجداد إلى الآباء لتستقر في جسدي، وعليّ أن أدفع ثمن عذابات كل من سبقوني.. في عمر لحظة عادت ذاكرتي عمراً إلى الوراء، حدّثتُ نفسي "لا أريد أن أموت، لا ليس الآن، ليس قبل أن أبدأ عملي، أثبت وجودي وأطرد الغزاة..

فلتقطع ساقي إذا كان لا بد من قطعها.. أما أنا فلا، لا أريد الموت في هذه اللحظة".. تحاملتُ على ساقي الثانية وقفزت، خانتني قواي ووقعت من جديد، أحسست بساقي إحساساً غير مألوف، بتقييد غريب وكأنما أوثق بحبل.. فجأة ظهر حازم أمامي، كانت عيناه مثل نقطتي دم هو الآخر، لكنه لم يتكلم.. نظر إلى ساقي وأخذ يُضمّد الجرح، ومن خلال نظراته شعرتُ أن اتحاد الناس وإحساسهم مع بعضهم بالأمل والعمل، يدفعهم إلى اقتحام مجالات لا يمكن أن يلجونها منفردين.

توالت الانفجارات، زحفتُ وحازم إلى بيت مهجور، سقطت قذيفة على بيت مجاور، شاهدت جدران البيت الأربعة وسقْفه تتناثر كالريش في الهواء، تأوه حازم وقال: "لا جدوى من الرحيل من هذا المكان".

من خلف الستائر الصفراء التي تغطي النافذة، كنا نرقب الجنود وهم يتقدمون، التقطت أسماعنا بعض الطلقات المصحوبة بالشتائم العبرية والصرخات، ألقى بعض الجنود القبض على أحد المقاتلين بعد أن أصابوه بالرصاص، انقضوا عليه بأعقاب بنادقهم وحقدهم، استحوذ عليّ سخط جنوني طرد عني القلق وألألم، أخذت يداي تنقلان إلى سلاحي عرقهما في محاولة للضغط على زناد البندقية، كنت أعتقد أن المسكين سيصمد خمس دقائق بين أيديهم، لكنه لم يصمد دقيقة واحدة، وكان بالإمكان أن ينجو التعيس لو كان معنا ذخيرة احتياطية.

دار حازم على نفسه بحركة الهرّ الذي يتظاهر بألعابه الوحشية، متخلّياً عن فريسته للحظات، شعر أنه كالفزّاعة وهو يحمل السلاح بين يديه بلا ذخيرة، صوّب نحوي نظرة يلوح منها الحقد والقهر في آن وقال: "لا يَدُر في ذهنك أن تمنع المريض من أن يحسّ بالألم، وإلا أضعت وقتك وأصابك القنوط".

أحسستُ بالألم الذي يختزنه حازم في صدره، وشعرت من خلال كلماته القليلة إنه يريد أن يقول الكثير، وحين يريد المرء أن يقول أشياء كثيرة، لا يستطيع أن يقول شيئاً، ربما يقول بعض الكلمات القليلة في هذه الحال، وبدل أن يقول ما في أعماقه، تصدر عنه كلمات غامضة تحمل أكثر من معنى.

صمْتٌ رهيب كان يغرقنا وكلانا يرقب شخصاً يموت دون أن نملك وسائل إنقاذه.. كنا نشعر بنفاد قوانا وذخيرتنا، ولم يكن بإمكاننا مواصلة القتال تلك الليلة.. تساءل حازم وهو يتربّص للجنود ويرقبهم من خلف منظار بندقيته الفارغة: "لا أدري كيف يخفى على العالم تسمية تغلغل أصحاب الحق في أراضيهم إرهاباً، بينما يُسمّون تغلغل قوات الإحتلال في لبنان دفاعاً عن حقّهم المشروع!".

كنا ضائعيْن، مطارديْن، مهملَيْن دون أمل في الخلاص، ولم نجد طريقاً سالكة، كانت كل الطرق في لبنان تقود إلى الموت.

بعد أكثر من ساعة من القصف المتبادل بين الطرفين، عاد الجنود وانسحبوا بعد أن واجهوا صعوبة نيران قوات المقاومة.. وتمّ نقْلي إلى المستشفى لمتابعة العلاج.

***

بعد ثلاثة أيام من الحصار والموت والجوع والعطش، استطعتُ أن أقف على ساقي بعد أن أثقلها الجبس، كما خرج الناس من ملاجئهم، ليلتقوا صباح اليوم التالي في المقبرة، دفنوا شهداء الغارات والمعارك، ثم انطلقوا جماعات نحو المستشفيات يحملون الأعلام السوداء، ويتفقدون الجرحى ومن تبقّى على قيد الحياة.

قرب باب المستشفى، فوجئت بالطفل الذي كان يأتينا سابقاً، كان فرحاً وهو يحمل المذياع في يده ملطخاً بقطرات الدم، يقفز ويغني ويقول: "انتهت الحرب".. وعندما شاهدني توقّف بعيداً ولم يقترب.. قال والدموع تملأ عينيه: "المقاتل أعطاني إياه".

سألته إذا كان صادقاً فيما يقول!..

- كان المقاتل نائماً والدم يسيل من رأسه. أجاب الطفل وهو يمسح لطخات الدم عن المذياع، ثم اختفى عن ناظري..

أغمضتُ عينيّ، وراحت صورة المقاتل تتراءى لي وهو منطرح على الأرض بوجهه الشاحب، وقد تراخت يده عن سلاحه، يلفظ أنفاسه الأخيرة دون أن يقدر على مساعدته أحد،

كان رفيق سلاح، واحد من مئات المقاتلين الذين استشهدوا دفاعاً عن المظلومين.

***

في المطار، احتمى المقاتلون في السراديب تحت الأرض، ومن الفتحات الأرضية الصغيرة راحوا يرقبون دبابات العدو المهاجمة، الصناديق الحديدية تزحف على الشارع المحروث بحفر القنابل، باتجاه رجال المقاومة.. والرجال يرقبونها بتحفز وحذر من فتحات المجاري المرفوعة قليلاً عن الأرض.. لم يكن في المقدمة أحد يصدّها أو يوقف زحفها.. لكن قذائف الهاون هي التي كانت تتصدى لها وتوقف زحفها..

كأنما الزمن تمدّد.. شعرتُ أن الدقيقة يمكن أن تمتد دهراً، وأن المرء يستطيع أن يحيى حياة كاملة خلال هذه الدقيقة، شعرت أني هربت خلال دقائق مقدار عشر سنوات إلى الوراء، وسيطرت على مخيلتي مسيرة حياة كاملة.. النجاح، الفشل، الغربة، الضياع والموت.

الدبابات المدجّجة بالجنود تزحف على أرضية المطار، تتمايل وتكبر أحجامها بصورة لا تكاد تلحظ، وفي الحقيقة كان الموت هو الذي يزحف نحو رجال المقاومة، وشيء يُطقطق بضعف عبر أسماعهم عند فتحات المجاري، يصفر ويصخب صخباً غامضاً، وكأنه يوقظهم ويزرع فيهم الأمل والحياة من الموت

الزاحف نحو رؤوسهم، امتدّ مخلب الموت وتطاول واقترب، فجأة أُعلنت ساعة الصفر، انقضّت قذائف الموت ضربة واحدة تملأ الكون وتعيد لرجال المقاومة الحياة.. خمس دبابات اشتعلت فيها النيران على أرضية المطار دفعة واحدة، والجنود يتساقطون، تلاحقهم طلقات الرشاشات وتتصيّدهم، جحيم القذائف والرصاص أطبق على الأرض، الموت صار كابوساً يلاحق الطرفين، أخذت المدفعية ترمي بقذائفها وحممها من بعيد على المطار، كان الوقت يقترب من الظهيرة، وبدا دخان القذائف مع سقوط أشعة الشمس مثل ضباب رمادي كثيف، نظرتُ إلى حازم، شاهدت وجهه شاحباً حاد العينين ورأسه مُطأطأ على منظار بندقيته، الانفجارات مستمرة والدبابات ما زالت تتقدم، قذائف ترتطم في الأرض وتحفر فيها حُفراً عميقة، صرخات مكتومة تسقط وسط المجاري، اعتقدتُ أن حازم أصيب، لكن حازم نظر نحوي وابتسم قائلاً: "لا داعي للتساؤل عن مصيرنا طالما نعرف الواجب الذي جئنا من أجله، علينا أن ننتظر اللحظة فقط، وعلينا أن نعمل بعقولنا وسلاحنا مهما طال الوقت".

ورغم صمود المقاتلين على أرضية المطار، إلا أنهم لم يستطيعوا أن يوقفوا زحف الدبابات، مما اضطرهم للانسحاب للتقليل من خسائرهم وإعادة ترتيب الصفوف.

***

كثّف العدو قصفه للمدينة.. اقتربت البوارج الحربية من الشواطئ، تحوّل البحر إلى جزر من المعادن الفولاذية، صار بحر بيروت بحوراً عريضة وطويلة وواسعة، امتدت واتسعت وأصبحت أكبر وأطول وأعرض من بحور الشعر العربي قديمها وحديثها.. أصوات القذائف تصم الآذان، وبدت المخيمات مثل خلية نحل.. تاه الناس في الشوارع وركضوا إلى الملاجئ، والقذائف تتساقط مثل زخات المطر.. في صبرا كانت المحال التجارية مغلقة، والنيران تشتعل في محل أبي سعيد، الناس يتراكضون ويأخذون ما تطاله أيديهم من وسط النيران.. أُصيب بيته أيضاً بقذيفة مدفعية ولم يكن بداخله أحد، وباتت مريم هاجسي الوحيد في الحرب اللعينة، شعرتُ أني المسؤول الوحيد عنها، وعليّ أن أحميها من الموت والقذائف والتشرد.

الأطفال يركضون كالخراف المذعورة وسط القصف، وأنا أركض معهم رغم وجود الجبس الذي يُثقل ساقي، أبحث عن مريم وأدلّهم على الملاجئ.. وقف طفل لم يتجاوز السابعة من عمره قرب جدار مهدّم تائهاً ووحيداً، كان يبكي ويحتضن مذياعاً على صدره، ركضت نحوه، ضممته إلى صدري وحملته بين ذراعيّ، بدا الطفل مرعوباً من الحرب هذه المرّة.. تشبّث بي وتعلّق بكتفيّ، قال إنه خائف من الحرب والموت، قبّلته وأسرعت به إلى ملجأ قريب، كان ولدان يقفان قُرْب بابه، وسمعت أحدهما يقول:

- ليتني اكبر بسرعة وأحصل على بندقية..
- يبدو أنك لن تكبر، فالأمور ستستمر هكذا حتى يوم القيامة.

قال الطفل الآخر.

كان الشيوخ والنساء راكعين على أرضية الملجأ وكأنهم يُصلّون، ومن خلال الضوء الأحمر ظهروا جميعاً وكأنهم غارقون في بحيرة من الدماء، تداعي إلى مسامعي صوت عجوز تقول: "خذني إليك بوجه ابيض يا رب".. أما الأطفال فكانوا متكوّمين في زاوية من زوايا الملجأ، شاحبي الوجوه يرتجفون من الذعر، وفي ركن جانبي كانت إحدى النسوة تحتضن اولادها الثلاثة وتضمّهم بين ذراعيها إلى صدرها مثل دجاجة تحمي صغارها، ورابعهم الصغير يزحف حولهم ويبتسم ظاناً أن الجميع يداعبوه، تحاول والدته الإمساك به فيفلت من جديد، أنفه كان يفرز مخاطاً يصل شفته العليا، والسائل يُسحب كل لحظة، ولا يلبث أن يسيل من أنفه ثانية ويغرق الشفتين.. بينما يردّد جميع من في الملجأ الأدعية ويقرؤون آيات قرآنية.

استمرت قذائف المدافع متتالية كالرعد، وظن جميع من في الملجأ أن مخيم صبرا دُمّر عن بكرة أبيه، ولم يبق أحد من الأحياء يحمل سلاحاً، وحين توقف القصف وخرج الناس من الملاجئ، لم يُصدّقوا ما رأوا بأعينهم، فلم يكن هناك سوى خمسة جرحى وعشرة بيوت متهدّمة.

على نحو يحتار له عقل الإنسان السليم، تدفّق الناس من ملاجئ وأنفاق صبرا وشاتيلا.. نهر عارم من الشقاء الإنساني، من التشرد واليتم والبطالة وحملة السلاح، وأحدهم يقول لصاحبه:

- في الملجأ كنت أتساءل، ماذا لو سقطت قذيفة أو قنبلة فجأة علينا!..

تنبّهت امرأة تحمل طفلاً وتجرّ ثلاثة آخرين لما يقول، فأجابت بهدوء:

- وماذا يكون!، إذا سقطت ستقضي علينا جميعاً دفعة واحدة، عليّ وعليهم سوية، سنرتاح من العذاب. وكانت تعني أولادها الأربعة.

حازم وفالح كانا يجلسان القرفصاء جنباً إلى جنب قرب حائط الملجأ، وعندما سمعا ما قالته المرأة، تبادلا النظرات وابتسما، وبعد لحظة صمت علّق فالح: "مساكين الأعداء، يعتقدون أن قذائف الطائرات باستطاعتها أن تلغي ولادة الأطفال، كما يعتقدون أن المعتقلات باستطاعتها أن تلغي الحرية".

في الليل أُطلقت قذائف الإنارة فأحالت ليل بيروت إلى نهار، وسُمع هدير الطائرات مختلطاً بانفجارات متفرقة، ولم يعد أحد يعرف المواقع التي تتعرض للقصف، وعلى أضواء قذائف الإنارة شاهدتُ بوضوح الجراذين بحجم الأرانب، تقف وتلتهم الأوساخ، جنباً إلى جنب مع القطط.. وكانت الفئران الصغيرة

تهرب بمجرّد سماع أي صوت، ثم تعود بعد دقائق لقرض الطعام من جديد.

***

ظهر حسن بيننا فجأة، قال إن القيادة أفرجت عنه، وإنه كان في الجنوب، لكن الجنوب مشّطته الجرافات.. سألته عن أحوال المقاتلين!، فقال:

- تكبّد العدو خسائر كبيرة في الأرواح، ومعنويات الرجال عالية جداً.. في بيت واحد قتلنا أكثر من عشرين جندياً.
- كيف؟!. سألته

قال حسن: كان المقاتلون يلجأون إلى البيوت السكنية في الليل، حتى لا يطالهم القصف في مواقعهم، وكنت مع بعض الرفاق عند إحدى العائلات نحتسي القهوة، عندما اندفع أحد المقاتلين، وأخبرنا عن عملية إنزال للقوات المعادية.. وقبل أن نتمكّن من الخروج، كانت القوات الغازية قد طوّقت المكان، وتقدم ستة من الجنود إلى البيت يطرقون بابه، اندفعنا إلى سرداب داخلي قاد المجموعة إلى الأحراج القريبة، بينما بقيت أنا في المخبأ السري، قامت المرأة وفتحت الباب، وعندما لم يجد الجنود أحداً غيرها في البيت، انهالوا عليها ضرباً بأعقاب بنادقهم، تنبّه أحدهم إلى فناجين القهوة الساخنة، عدّها ثم طلب من المرأة أن تبلّغ عن مكان عشرة "إرهابيين" أو تُقتل بعشر رصاصات، لكنها لم تعترف واستسلمت لمعاملتهم السيئة بصبر، وعندما حاول أحد

الجنود الاعتداء عليها، فقدتْ أعصابها فجأة وضربته في وجهه، وجاءها الرد سريعاً على صورة ضربة قاسية من كعب بندقية، وسدّد جندي آخر ضربة من الخلف جعلتها تترنّح وأسنانها تصطك في بعضها البعض، والنجوم ترتسم أشكالاً سداسية أمام عينيها.. وفي تلك اللحظة شاهدتُ من خلال ثقب في الجدار جنوداً آخرين يتقدمون إلى البيت، لكني فاجأتهم بالنيران، واندفع الرفاق بوابل نيرانهم من الخارج، قتلنا كل من كان في البيت وخارجه.. وفي الصباح عندما اقتحمنا البيت، شاهدنا جثة المرأة ممددّة عند الباب وقد تمزّقت ثيابها، بينما أحصينا أكثر من عشرين جثة لجنود الأعداء، ألقينا بهم في السرداب وأغلقناه بساتر ترابي.

ومع أن حسن توقّف عن سرد حكايته، وتوقّفت الإذاعات لانتهاء برامجها تلك الليلة، إلا أن القصف لم يتوقف، ولم يعد يجدي البحث عن إذاعات على الموجات القصيرة أو المتوسطة، كما لم يعد الناس يبالون بما يسمعون.

***

بدأت الراجمات تقصف باتجاه الجنوب من داخل بيروت، وهذا يعني أن قوات العدو اقتربت كثيراً بحيث أصبحت داخل مدى رماية رجال المقاومة.. عاصفة من الأحاسيس اضطرمت في صدور المقاتلين، وبدوا كأنهم جميعاً يتألمون عن الوطن، كما لو

أن الأرض العربية كلها تخضّبت بدماء الشهداء.. فالح كان يعاني ويحاول في أصعب الأوقات أن يُضحك رفاقه، قال إنه اكتشف سبب دوران الأرض.. "إنها تدور لتطحن مَن تبقى على قيد الحياة، تدور بفعل ثقل جثث الموتى عليها، بعد أن زاد عدد الموتى على الأحياء في لبنان".

لم يتوقف القصف طيلة الليل، عند الظهيرة تردّدت حكاية عن رجل اعتقد أنه حبة قمح، وعند المساء عمّت الحكاية وانتشرت بين المحاصرين نكتة القمحة والدجاجة، فقد قيل أن رجلاً رفض الخروج من بيته وتحصّن فيه، وعندما سُئل عن السبب، قال إنه يخشى إن خرج تأكله الدجاجة، لأنه حبة قمح.. حاول ذووه إقناعه أنه رجل وليس حبة قمح، لكنه لم يُصدّقهم، وقال: "إذا اقتنعتُ بما تقولون، فمن يضمن لي الدجاج ويُقنعه أني رجل ولست حبة قمح".. وعلّق حازم على ما قيل بأن "إسرائيل تحاول طحْن حبة القمح قبل أن تنمو وتثمر سنابل، ومعركتها بدأت بالقضم والتقشير للقضاء على رجال المقاومة، والفراخ لا تفهم غير لغة الدجاجة".

***

أيام طويلة مرت، أُعلن بعدها عن وقفٍ لإطلاق النار، وقليلاً ما أُعلن عنه في أيام الحصار الأخيرة.. التجأ المقاتلون إلى الرقاد والراحة، وهذا ما كانوا يحتاجونه ويرغبون فيه أثناء الفترات القصيرة.. انتهز فالح فرصة وقف إطلاق النار، وطلب مني أن

أرافقه.. في غرفتي جلس على السرير وأخذ يقرأ بانتباه مذكراته التي سجّلها في مفكرته سابقاً.. وشيئاً فشيئاً راحت تتجلى له التفاصيل التي لم تكن لها أهمية كبيرة للوهلة الأولى، بينما كان من الممكن، وكما أوحت له الخبرة، أن يُصبح لها تأثير السلاح نفسه، فجأة أحس بشعور غريب، وكأنما يُرتّب نفسه من داخلها، ضغط على رأسه بكلتا يديه، تطلّع إلى السقف، زحفت عتمة دخانية باردة على عينيه وأخذت تتكاثف، وراحت يداه تُمزّق الأوراق وتُلقي بها في سلّة المهملات.

تمدّد على السرير، وسحب جسده كمن يسحب قارباً فوق ماء البحر، قال إنه رجل منكسر الأحلام.. ضغط إحدى ساقيه بالأخرى، سحق ذراعيه تحت جسده في أوضاع غير مريحة، شعر أن أعصابه أحرّ من الجمر، "كما قال"، وأن جسده مثل كومة من المجلات المهملة فوق السرير، طوى الوسادة حول رأسه وراح عرق يتصبّب من جسده مع كل حركة، ومع ذلك لم يفلح في إغلاق عينيه، أخيراً استسلم لأفكاره التي بدت تغزو ذاكرته.. قال: "عندما يُحدّد المرء لنفسه النهاية يختفي الخوف، وتأتي تلك السكينة التي تُمكّنه من الرحيل عن الحياة بعزّة"، وتساءل: "ما الذي يدفع المرء للتعلّق بالحياة بعد هذا العمر!، المفروض أن يقلّ تشبّثه بالحياة!، الأسْرة، الأقارب، الإرادة!.. لكن الإرادة تضعف مع الحصار والموت الجماعي والشيخوخة المبكرة، ولا أُسْرة هنا ولا أقارب، فقط رصاص ومقاتلون

يقاتلون أشباح، وقذائف تنهال من حيث لا نعلم".. وأغمض عينيه ليسترجع من سنوات عمره لحظة تسرّه، لحظات طويلة ودّ فيها لو يموت، لكنه لم يمت.. الآن هو على قيد الحياة، فلماذا يفكر بالموت!؟.. أدرك أن عليه أن يعيش رغم كل شيء، يعيش لكي يناضل بالرغم من أية ظروف، يرد العدوان ويردع المعتدي.. بعد ذلك فليمت، فليمت كما يريد لا كما يريد له الآخرون.. بهذه الطريقة فقط يستطيع أن يواجه الجحيم. كما قال.

عندما وجد الحل، أغمض عينيه واستعد للنوم، لكن النوم عانده ثانية، استدار على جانبه الأيسر حتى يُهدّئ من ضربات قلبه، ثم عاد إلى جانبه الأيمن، لا فائدة، شعر بالجانب المعتم للحياة يحوم قريباً من سريره، بدا الانتحار هو الوسيلة الوحيدة لإنقاذه من العذاب، كوّر جسده في الفراش واضعاً ذراعيه بين ساقيه، ودفن رأسه في الوسائد باحثاً عن استراحة جديدة من لمحات أفكاره المؤلمة، في النهاية سعى إلى احساسات جارحة أغرق نفسه فيها رغم إيلامها، اختنقت الكلمات في جوفه، شعر أنه ليس سوى قشة تطفو فوق سطح مياه بحر متلاطم الأمواج، تساءل: "لماذا يطالبوننا بأشياء تفوق قدراتنا وطاقاتنا!".. ركل الكرسي برجله، ثم عاد وانهار فوق السرير من جديد، أحسّ أنه ينشطر ويتناثر، ويتدثّر بأحزانه.. قال: "على الإنسان أن يخرج من جلده آلاف المرات ليؤكّد حضوره، عليه أن يفرغ نفسه من محتواه الإنساني والوجداني والعاطفي، ويسكب في جسده الروح الانتهازية حتى

يستطيع العيش والحياة".. مدّ ساقيه خارج الحرام الصوفي إلى أن لامسا العمود المعدني في نهاية السرير، ثم فتح عينيه بالتدريج.. شعر أن رأسه تحوّل إلى عجينه طرية، طفا فوق ضباب مصنوع من القطن الناعم، ورأى بأم عينيه الموت يحصد المقاتلين والأبرياء ويختطفهم من أسرّتهم ومن مواقعهم واحداً بعد الآخر، دون أن يتركوا وراءهم ذِكراً لأحبائهم أو لأي شخص آخر.. أرهقته هذه الفكرة، شعر أنه مُحاصر داخل الجدران، فجأة هبّ من سريره واقفاً، أسرع إلى سطل الماء، حمل بين كفّيه كمية من الماء الآسن وصفع بها وجهه، شعر أنه استعاد نشاطه الطبيعي، حمل سلاحه، فتح الباب ودعاني للخروج معه.

***

خراب خراب، بيروت كلها خراب، بنايات وشوارع بأكملها اختفت، ولم تعد هناك بناية دون إصابة مباشرة، استعمل الغزاة كل أنواع الأسلحة، بما فيها القنابل الفسفورية والعنقودية والانشطارية والنابالم لقتل رجال المقاومة ومن يؤازوهم.. غرفتي الرطبة دُمّرت أيضاً وسُوّيت بالأرض، أخيراً زالت منها الرطوبة وتعرّضت للشمس ونيران القذائف المشتعلة.. صار بيت الحبيبة ركاماً من الحجارة المتناثرة أيضاً، أطلالاً من الماضي.. شعرتُ بغضب مفاجئ ووقفت أرقب حجارة الغرفة وهي تقعي أمامي متناثرة، وكأنها تستنجد بي وتلومني على المصير الذي

آلت إليه، بعد أن آوتني لسنوات عدة.. وعندما غادرتُ المكان كان بيت الحبيبة وغرفتي ما زالا قائمين في ذاكرتي، ووجهها الملائكي ما زال يطل من النافذة التي تراءت لي في مخيلتي.. رحت أبحث عن ضالتي من مكان إلى مكان، ومن ملجأ إلى آخر.. لم أعد أهتم بقذائف المدفعية البعيدة المدى أو بتساقط الرصاص.. ملجأ العجزة قُصف وبداخله أكثر من ثلاثين شخصاً من المتخلفين عقلياً، أصيب أحدهم بشظية، وكان الدخان الفسفوري المحترق داخل صدره يخرج من أنفه وفمه ومع كل نفس يتنفسه، كان يزفر بألم حاد، والأطباء يحاولون نزع الشظية من صدره قبل أن يزيلوا الأنسجة المحترقة.. أما القنابل العنقودية فإن مراقبتها لدى انفجارها من على بعد أشبه ما يكون بمشاهدة مطر من الرعب، قنابل شيطانية صغيرة فتاكة تخلق أمواجاً مخيفة من الموت.

بيروت كانت مدينة مُستباحة، تناثر المدافعون عنها مثل طلقات الرصاص الفارغة بين البيوت المهدمة وبين الأشجار، وتوزّع الموت بينهم مثل أوراق اليانصيب الخيري، قليل هم الرابحون، كانوا يتألمون وكأن قطاراً مرّ على أجسادهم.. ومع ذلك ظلّت معنوياتهم عالية، صامدون، لا يبالون بالموت من أجل الحرية والحياة.

***

خلف أكياس الرمل استلقيتُ مع مجموعة من المقاتلين نطلب قسطاً من الراحة، أخذت مجموعة أخرى تلعب الورق في انتظار جولة جديدة من القتال، تأمّل فالح معسكر القوات الغازية الذي أقاموه حديثاً في مكان قريب وقال: "هؤلاء الأبالسة يُبطنون غير ما يُظهرون، والمصيبة أننا نُصدّق ما يقولون".

كان اللاعبون مشغولين بأفكارهم، ضحكاتهم كانت تطغي على وجوههم وعلى الأحداث، وكأن الموت والدمار والحصار في بلاد أخرى غير هذه البلاد.. تنحنح فالح وبصق على الأرض، ارتطمت بصقته في الأرض مثل رصاصة.. لم يتنبّه لحركته أحد، كما لم يسمع أيّ منهم ما قاله.. كان اللاعبون قد اتفقوا على أن من يخسر اللعبة يُحضر جندياً إسرائيلياً رهينة أو أسيراً.. حازم كان الخاسر في الجولة الأخيرة، وهذا ما كان.. اقترب من الموقع الإسرائيلي القريب وفاجأ أحد الجنود بسلاحه، واقتاده إلى موقع المقاتلين.. فقام أفراد المجموعة بتسليمه إلى القيادة سالماً.. بعد أقل من ساعة عاودت القوات الإسرائيلية القصف وتوقفت مفاوضات وقْف إطلاق النار، ولم تُستأنف إلا بعد أن تم ترتيب إعادة الجندي إلى موقعه.

استمرت المفاوضات كما استمر تعقّب الجنود الغازية للمدنيين بدل المقاتلين، لكن المقاتلين كانوا يراوغون الجنود، يعودون وينقضّون عليهم ويذيقونهم طعم الموت الحقيقي.. فمنذ البداية عقدوا العزم على النصر.. يُحاربون، يُجرحون، يُسجنون،

يُقتلون، يعيشون في المجهول.. لكن أحداً منهم لم يُفكر مرة واحدة أنه بالإمكان أن يستسلم أو ينسحب من بيروت.. قال حازم "لا مكان للانسحاب في الحرب، مَن لا يكسب يخسر.. ما زلنا صامدين ولم ننهزم عسكرياً، ولن ننسحب كما أرادوا لنا، لهذا خسر الأعداء حربهم حتى هذه اللحظات".. وأضاف: "هدف إسرائيل من هذه الحرب هو قتْل فكرة الوطنية الفلسطينية، وتدمير الإرادة والذاكرة العربية قبل تدمير المدن وسحق المقاتلين، أو إخراجهم من بيروت، وحين يجري التحرّر من الذاكرة، يعبر كل شيء بسلام، ويصبح مُمكناً".

أما فالح فقال بأن "الأعداء يحاولون إطالة الحرب لا لضعفهم، ولكن لإضعاف المقاومة وإظهار قوّتهم، فالمحاصرون سيستسلمون أخيراً من الجوع والعطش، وهم سينتصرون اقتصادياً.. وبالتالي يربحون عسكرياً". وأضاف بعد لحظة صمت: "لم يعد بإمكاننا أن نعرف العصيّ التي تضربنا.. كما لم يعد بإمكان رجال المقاومة معرفة من الذي يفرض الحصار عليهم، العرب أم الأعداء!". ثم تناول من جيبه قلماً ودفتراً صغيراً وراح يكتب للصحيفة التي ينشر فيها كتاباته:

"الناس مُتعبون ومرهقون ومشغولون بتأمين الماء والخبز ودفن القتلى، ينغلون في الشوارع ويتيهون مثل الجراد في الحقول.. ومع ذلك قاتلوا جميعاً وفي ذاكرتهم النصر أو الشهادة، وليس لهم خيار آخر.. أما العواصم العربية، فما زالت مشغولة

بالتظاهر ابتهاجاً بتفوّق فِرَقهم الوطنية في مسابقة كرة القدم، ولم يسمع المحاصرون في بيروت بمسيرة أو مظاهرة واحدة انتصاراً للمقاومة، أو استنكاراً لاجتياح لبنان.. وحين تم الاتفاق بين الطرفين، توقّف القتال شريطة انسحاب المقاتلين من لبنان.. ولم يخطر ببال أحد فكرة الانسحاب، ومع ذلك وافق المقاتلون على الانسحاب، وتحوّلت العروبة من أمّة تملك نفسها، إلى قبائل خانعة متسوّلة في المحافل الدولية.

الصمت العربي كان مُذهلاً وجارحاً، وبدا العرب منقسمين على أنفسهم بصورة لم يسبق لها مثيل، وغدا الحلم العربي جثة تتمدّد وسط الصحراء، والشعب الفلسطيني في لبنان وفلسطين يُذبح من الوريد إلى الوريد".

***

مراياي تكسّرت، واختلطت الأمور في مذراة ذاكرتي، شعرتُ أن الموت أرحم من فراق بيروت ومريم.. قادتني خطواتي إلى حيث تقيم مع أسرتها في بيت عمها قرب مقبرة الشهداء.. وجهها كان استراحة المحارب.. معها كنت أنسى الحرب.. أهرب إلى بلاد بعيدة، وإلى كواكب أخرى مليئة بالحرية والحب والسلام.. كان الوقت صباحاً والساعة تشير إلى التاسعة، وكان عليّ الرحيل مع المقاتلين قبل الساعة الثانية عشر ظهراً.. ما زلت أذكر تلك اللحظة، وأرقب برُعْبٍ قاتل دقات الساعة التي سأودّع فيها

الحبيبة التي ستكون زوجتي في المستقبل.. دار نقاش داخل البيت عن الموت والحياة، الاستشهاد والرحيل، الفراق والغربة والنفي.. كانت تتألم وتتقوقع، تغمر وجهها براحتيها وهي تستمع إلى الأخبار، وما يدور على الأفواه عن الرحيل ومغادرة لبنان.. سألتها إذا كانت توافق على الزواج وترحل معي؟..

لم تُفكّر كثيراً وقالت "نعم ".

ومع أني لا أريدها أن توافق، فقد وافقتْ.. فراشة ليلية حاولت الفرار من اللهب فالتجأت إليه.. ورغم لحظة الفرح التي اجتاحت كياني، إلا أني أحسستُ بغباش العالم يهبط إلى عينيّ، وأن ضباباً يحيط بهما ويمنعهما من الرؤية جيداً، ومع ذلك أسرعتُ وأحضرت لها تصريحاً لمرافقتي، وخرجنا من البيت وسط دعوات المكلومين والدموع.

***

منذ البداية أعلن جيش الاحتلال أن هدف هذه الحرب تحرير لبنان من الغرباء، ومنذ البداية قال رجال المقاومة أنهم لن يمرّوا ولن نخرج، "نموت ونحن واقفون، لن نخرج ولن يمرّوا".. ومع ذلك مرّ الأعداء على ما لفظته أرواح الأبرياء من جثث، لكنهم لم يهزموا بيروت المدينة التي حاصروها أكثر من ثمانين يوماً.

الوداع كان آخر ما قدّمته بيروت للمقاتلين، بعد أن يئسوا من وصول الدعم العربي.. تركوا أزواجهم وأولادهم وأمهاتهم

وآباءهم أمانة في أعناق من قدّموا الضمانات والوعود، ورحلوا بأسلحتهم الخفيفة وبرؤوس مرتفعة، مرهقين حتى الموت.

آهات عربية غريبة أخذت تسبح في خلايا الفكر والروح بانكسار غريب، أصبح الحزن في يوم الرحيل ألماً وظلالاً ممتداً نحو أفق مجهول.. رجال مكسورة أعناقهم بأطواق اليتم والرحيل، كلهم موتى رغم أنفاسهم وحرارة أجسادهم، ختموا جوازاتهم بتأشيرات تحمل طابع الضياع، ودفعوا بهم إلى البحار ليتيهوا في منافي البلاد العربية البعيدة.. حملوا أشواقهم وأحزانهم في حقائب سفرهم واستعدوا للرحيل بين الصدى والصمت، الزغاريد والدموع.

انفرط العقد وتفرّقت أسراب طيور النار دون أن يتركوا عنواناً لغيابهم، أو تاريخاً لعودتهم، تراودهم أحلام العودة إلى الوطن.

دوامة من الحزن اجتاحت جميع الراحلين والمودّعين عند الميناء، وفيروز تغني "بحبك يا لبنان"، والمقاتلون يُردّدون "ونحن نحب لبنان ونحب القدس وفلسطين أكثر".. صارت الدموع ثقيلة وكبيرة وقاسية، وبات البحث عن الكلمات المعبّرة عند الوداع أصعب من أيام القصف.. ثلاثتنا "حازم وفالح وأنا" لفّنا العناق والهمّ، انفجرنا في بكاء حارق وتلاحمنا بالقلوب قبل الأذرع.

رحل حازم إلى قبرص، ثم إلى العقبة في الأردن.

فالح رحل إلى تونس.

حسن هو الوحيد الذي تخلى عن سربه ورفض الرحيل عن بيروت، عزّ عليه أن يرى مدينته ترقد حطاماً مثل شواهد القبور، قال إنه "سيجد له مرقد عنزة في لبنان".. كان حزيناً ومقهوراً وهو يقف وحيداً قرب الميناء، يُلوّح للراحلين بيديه ويختفي بين الجماهير الصاخبة، مثل ساحر يركب مكنسته، ويُحلّق وحيداً في الأعالي كريشة في مهب الريح.

أنا رحلت برفقة مريم إلى السودان.

"هموم، هموم.. للخارجين هومهم، وللباقين هومهم".. حدّثت نفسي وأنا أصعد إلى الباخرة، وأضفت: "كل ما حدث، اختزنته الذاكرة مثل حلْم خبيث".

***

النافذة الثالثة

أمــواج الغضـب

قبل أن أطأ أرض جمهورية السودان، تناقلت الإذاعات المرئية والمسموعة أخبار مذبحة في أحد مخيمات اللاجئين في بيروت تقشعر لها الأبدان.. الأنباء كانت مقتضبة ومتضاربة، كأنما تنقلها أصوات خافتة تخاف أن تُصرّح بكل ما تعرف، لكن مشاهد مخيم صبرا وصور الضحايا التي بُثّت على المحطات المرئية اختصرت حكاية المذبحة.. وشعر الراحلون وكأن ثمّة قضيباً من حديد أو قطعة عظم استقرت في أحشائهم، وبدت معسكراتهم الجديدة تدمي كأنما من جُرْح واحد.

حسن كان هناك.. قال إنه نجا من الموت بأعجوبة.. وأضاف على مسامعي عبر الهاتف: "الضحايا كانوا من المسنين إلى النساء، حتى الأطفال الرضّع لم يسلموا من القتل.. قُتلوا بكل السبل المتوفّرة والمتاحة من طلقات نارية إلى مدي أو بلطات أو شنق أو بتر الأعضاء التناسلية والأثداء أو شق البطون.. وكان المحظوظون هم الذين أُطلقت عليهم النار جماعات أو فرادى، بينما خُنق الآخرون، أو ذُبحوا من الأعناق، وتعرّضوا للتشويه قبل الموت أو بعده.. في المستشفيات قُتل الأطباء والممرضات

والمرضى في أسرّتهم.. مات البعض تحت أنقاض بيوتهم الصفيحية التي هدمتها الجرافات فوقهم، ثم دفنوهم في قبور جماعية حُفرت على عجل.

أطلق المعتدون النار على كل شيء، تاه أبناء المخيم في الفراغ بين الصمت والرعب والموت، لم يتوقفوا، وصلوا مشارف المخيم من الجهة الشرقية، فوجئوا بحاجز يتصيّدهم، وامرأة تُربط ويُبقر بطنها لانتزاع الجنين الذي في أحشائها.

في المساجد أوثقوا النساء واغتصبوهن وقتلوهن جميعاً، رصاص كثير وشظايا كثيرة ممزّقة، جمع القتلة من تبقّوا وتخلّفوا عن الموت عند المدينة الرياضية، وضعوهم في حفرة عميقة أحدثتها صواريخ الطائرات خلال القصف، طلبوا منهم الانبطاح داخل الحفرة، ثم أمطروهم بالبنادق الرشاشة، وراحت ثلاث جرافات تهيل التراب عليهم، تدفن الأحياء مع الأموات.. مئات القتلى من النساء والشيوخ والأطفال، لم يتركوا جريحاً واحداً يشهد على جريمتهم.. امتدت الصرخات المخنوقة بالآهات، وتطاولت مع امتداد النظر إلى الأفق على طول الوطن العربي وعرضه، ودُفنت في قبر جماعي.. تبخّرت الألوان وانصهرت في لون واحد، اتخذت لون الدم محراباً لها، دماء سوّرت الأرض العربية، وتحوّلت إلى نزيف حاد، تبخّر وانداح عن نهر طويل من الشهداء، تعمّد فيه كل الأحياء.

المخيم دُمّر بأكمله، والأخبار المرئية تنقل صورة امرأة عجوز تجلس خائرة القوى على قارعة الطريق قرب سوق الخضار، تحكي بصوت مخنوق، تغرف التراب وتنثره على شعرها ووجهها، ولم يكن في كلماتها رنّة تقريع، بل فجيعة ويأس قاتل.. تُسمّي القتلى والمذبوحين واحداً واحداً.. هي تعرفهم جيداً.. ترثي حالها وتعود لتتحدث عن مصيبتها، تلوح بثلاث صور أمام المارة.. تقول إن ولديها استشهدا في بداية الحرب، أما زوجها وابنتها فقد ذُبحا في شاتيلا.. ابنتها في الثامنة عشر من عمرها، لم تر شيئاً في حياتها، تمنّت أن تتعلم ولم تتعلم، تمنّت أن تسافر ولم تسافر، تمنّت أن تتزوج ولم تتزوج، تمنّت أن تموت فذبحوها.. ثم بدأت تُغني مرثية حزينة تُعبّر عن مشاعرها الخاصة، تُمزّق نياط القلب.. وبصوت لا يكاد المرء يميز معه إذا كانت تغني أم تبكي!، كان صوتها ينساب بهدوء الجدول بكلمات غير مفهومة، وحدها تعرف ماذا تقول ولمن تقوله.. وكلما امتدت المرثية تداعى إلى النفس موّال حزين، تراكمت في القلب الأحزان، ونزلت غصّة في الحلق.. وكان إفطارها وغداؤها وعشاؤها منديلاً مبللاً بالدموع".

***

صمْتٌ جليدي حزين اجتاح كياني، وأنا أستمع لما قاله حسن، عضضت بأسناني على الكلمات ولم أستطع ابتلاعها، شظايا

توقفت في جوفي وأدمته، حدّثتُ نفسي "عندما لا يستطيع المرء أن يفعل شيئاً، فلا جدوى من تفتفة الكلمات".

في منفاي الجديد، تجدّدت الأحداث وتوالدت كنـزيف حاد.. كبرت الذكريات وأصبحت من الماضي، ولفظ العمر أنفاسه الأخيرة..

أخوة السلاح في المنفى، تركوا أسلحتهم وتفرغوا للعب الورق في المقاهي، والتسكع على الأرصفة.. محاصرون في المعسكرات التي أقيمت لهم، والمدن التي يُمنع اجتياز حدودها.. لم أعد أتذكر سوى السفن وهي تتحرك ببطء وتبتعد شيئاً فشيئاً عن ميناء بيروت، تجر خلفها أذيالاً من الخيبة، وذيلاً من الأمواج الصغيرة المتكسرة والزبد الأبيض.. صوت المودّعين وعويلهم يخفت تدريجياً في رأسي، وبيروت تبتعد.. قبور جماعية عائمة تتيه وسط البحر المتوسط، عشيت الرؤية، وتراجعت وسط دخان ضبابي ثم اختفت.. شعوب وأقوام كثيرة مرّت وسط البحر كما مرّ المقاتلون.. سفن تجاوزت الشطآن، وغاصت مع القراصنة إلى القيعان.

رحل المقاتلون إلى المجهول، انسلّوا من أكفانهم، ضاعت شواهد قبورهم وجفّت دموعهم.. السماء زرقاء، البحر أزرق، ومياه زرقاء ماسية دون مدى وبلا حدود.. ضاع موتاهم، ضاع شهداؤهم، أثقلتهم الهموم ومضوا إلى المجهول.. باعوا كل ما

يملكون، واشتروا بقيمة الوطن ذكريات حزينة، ولم يبق لهم غير اجترار الذكريات والألم.

***

منذ بداية المنفى، أخذتُ أعد على أصابعي أيام غربتي، الأيام قفزت إلى أسابيع، إلى أشهر، امتدت وطالت إلى عام، عامين، ثلاثة، أربعة.. أمواج بحر صاخبة أتت ورحلت، عشرة أعوام، أحد عشر عاماً.. بعد ذلك فقدت معرفتي بالرياضيات، ولم أعد في سنوات القهر والغربة والنفي أعرف الحساب، ولا التاريخ ولا الجغرافيا، ولا حدود الوطن.

الحياة تحولت إلى كوابيس، همّ القضية الذي جمع المقاتلين في الأغوار وفي لبنان، فرّقهم في المنافي، تناسى الجميع صمودهم وقتالهم وموتهم ورحيلهم، تلاشت حكايات الحرب التي خاضوها، ولم يعد أحد يتذكر سوى المذابح.. مذبحة صبرا وشاتيلا فقط كانت العلامة الفارقة في الحرب اللبنانية، وكأن لا أحد استشهد في سبيل القضية غير النساء والشيوخ والأطفال، أما المقاتلون فقد غيّبهم الزمن، وصمودهم الذي كان، أصبح غباراً تذروه الرياح.. كان الهمّ يقلقهم، ينامون أو لا ينامون، يأكلون أو لا يأكلون، يعملون أو لا يعملون!.. تهاوى كل ما في صدورهم وانهار، وبدوا كشيوخ تحجّرت أحلامهم، واستكانت أجسادهم أنقاضاً.

في الليالي المسهّدة الطويلة، كنت أنام في العراء وأحلم كثيراً برائحة الأرض وعطر العودة الى الوطن.. أحلم بأطفال يولدون تحت أشعة الشمس، ولا يموتون بالرصاص الطائش.. أحلم برجال يحملون آمالاً كبيرة ويحلمون بالعودة إلى الوطن.. ويوم أن سقط أول حلم من أحلامهم في حزيران من القرن الماضي، ثم رحيلهم عن بيروت، شعروا أنهم فرسان يمتطون خيولاً خشبية.

ازدادت التفاصيل عتمة، وحوّل رجال السياسة الهزائم الى انتصارات، أوهموا المقاتلين أنهم تاريخ هذه الأمة.. قالوا لهم: "أنتم قاتلتم من أجل مستقبل الأطفال ومستقبل الوطن والأمة.. فكونوا أنتم التاريخ، وأفسحوا المجال لغيركم حتى يعيشوا المستقبل، ويكتب تاريخكم بحروف من نور".. وفي ظلمات الليل تناسوا أن التاريخ فعل ماض، وأنـهم جعلوا المقاتلين في الرحيل فعلاً ماضياً وتاريخاً مهزوماً.. تناسوا أيضاً المدن التي عاشوا فيها وفارقوها، وسفن نوح الحديثة التي لم تغرق في البحر.

هذه المدن كم برمجت أحلامهم وأوهامهم، لحظات فرحهم ولحظات تعاستهم.. إلى أن جاء اليوم الذي أُجبروا فيه على حمْل ماضيهم في حقائب سفرهم، تراثهم، تاريخهم، ذكرياتهم كيفما اتجهوا وإلى حيث يمضون.. أصبحت الحياة بالنسبة لهم فعلاً ماضياً، حنيناً دائماً، شوقاً وموتاً يومياً يعيشونه إلى جانب الحياة.

سنوات طويلة مرّت، حفرتْ أخاديدَ عميقة في وجهي، نبت في رأسي وفي لحيتي شعر أبيض.. قامتي تقوّست أيضاً بعد أن نسيت أقواس النصر، ولم يبق شيء من جسدي يصلح لسنوات عمري القليلة الباقية.

الصمت العربي أذهلني وجعلني مستمعاً جيداً.. أصبحت أجد صعوبة في التعبير عمّا يجيش في صدري، أتكلم كما لو كنت أركب دراجتين متعاكستين، اللفظ يمضي في جهة والمضمون في جهة أخرى.. خيوط عنكبوتية تُعربش على ذاكرتي، ولا يعود هناك ترابط بين ما أنطق من كلمات، ودائماً تنطلق صفارة انذار في رأسي، معلنة انكسار أحلامي وتحويلها الى شظايا.

***

في البلاد البعيدة توالت الكوابيس كما توالت خيبات الأمل، تراءى لي أن جيوشاً عدوة تجتاح مدناً عربية، ورأيت كما يرى النائم عواصم عربية تستسلم.. عصابات مسلحة تغزو البلاد العربية، ورحى حروب طائفية تمزق الأمة.. امتلأ فضاء العالم العربي بالرايات البيض والسود، وصار الوطن العربي وطناً من الفسيفساء والشظايا، اختلطت الأوراق، ودارت رحى حرب خليجية احرقت آبار النفط.. هطل مطر أسود وأتلف الأرض العربية من الخليج إلى المحيط.. غُيّبت القرارات العربية عالمياً ولم يعد لها أي أثر.. لم يعد المقاتلون يفهمون ما يدور خلف

الكواليس، وراح حملة السلاح الغرباء عن الوطن يتيهون في البلاد العربية، ينهبون ما تطاله أيديهم، ويشربون دماء ضحاياهم.. لم يعترض أحد، لم يصرخ مقاتل ولم يبكِ طفل، وكان الجميع يهزجون ويرقصون.

بيروت أصبحت عهداً في الذاكرة، سِفراً قديماً أو مدينة في الظل، كثيراً ما كنت استعيدها في ذاكرتي باستمرار، وأبقيها حية دائماً.. ودائماً أسمع أخبار الوطن وأرقب التلفاز، أرقب جنود الاحتلال وهم يطاردون أطفال الحجارة.. أطفال يجمعون الحجارة ويحرقون اطارات السيارات بحماسة وفرح، كأنهم يلعبون.. يواجهون الرصاص بفرح.. يكتبون قصائدهم بفرح، يعيدون كتابة التاريخ ويستشهدون بفرح.. الحجارة تُرعب الجنود، لكن الأطفال هم الذين يموتون، والأمهات يبكين، يتوجّعن ويتعذّبن، يحبلن الألم والغضب ويلدن الزغاريد والدموع، والإذاعات العربية المرئية والمسموعة تثأر بالأغاني وتستصرخ النيام "الشعب العربي وين، الشرف العربي وين، الدم العربي وين، الغضب العربي وين، وين الملايين!".. وأنا أبكي بحرارة وبحرقة طفل، أتألم وأئن تحت وقع سياط الآهات العربية الطويلة والمؤلمة.

***

السنوات مرتّ كرحى الطاحون، حملت معها أحداثها وهزائمها وهمومها.. وما زالت زوجتي مريم تحمل همي على مدى سنوات غربتي، نما حبي لها وأثمر ثلاثة أبناء، غيّروا ملامح جسدي وقسمات وجهي ولون شعري، وأعادوا تركيب عقلي من جديد.. وما بين فترة وأخرى كنت أتذكر الماضي، تتسارع دقات قلبي، تتغبّش نظراتي وتغيم عينيّ بقطرات من الدموع، أجلس وأحدّق في البعيد البعيد، أرقب وجهها وعينيها العسليتين من نافذة غرفتي القديمة، التي صنعتها من جديد في مخيّلتي.

مريم كانت تُقيّدني بالأمل وتدفع عني اليأس، وعندما أقترب منها، أشعر أن كابوساً يداهمني ويلغي كياني ورغباتي، وأنا أجتر الماضي وأعيش الغربة، بانتظار ساعة الفرج.

***

حوارية الأجيال

طيور الغربة أنهكها الترحال، أخيراً وبعد مفاوضات علنية وأخرى سرية خلف الكواليس، قرر المقاتلون أن يضعوا حداً لمنافيهم والعودة إلى الوطن.. الوطن مهما كان صغيراً أفضل من المنافي التي تقتل الأحلام، وحيث يبني المرء أحلامه ويُحقّق واقعه، يطمئن ويخلد إلى النوم.

لم أنم تلك الليلة، بقيت طيلة الليل أرسم ملامح الوطن وأتعرف على تضاريسه من خلال الذاكرة.. حلمتُ بالنوم على سرير في بيت أمتلكه في الوطن، لا ينازعني فيه أحد.. ومع خيوط الفجر ترجلتُ وعائلتي من حصان طروادة العربي مع أول دفعة عائدين إلى الوطن.

في المطار سجدت على تراب الوطن، وسالت دموعي فرحاً.. شعرت أن حُبّه اخترق عظامي بعنف.. وحين رفعت رأسي، أحسست بطعم الذل والانكسار، وأنا أرى جنود الاحتلال وقد نبتوا في الأرض مثل أعشاب شوكية، وتناثرت المستعمرات والمستوطنات كغابات وحشية، هزمت المدن التاريخية والعواصم العربية الكبيرة والعريقة.

***

كل جسد ينتهي إلى تراب.. كل نار تنتهي إلى رماد، وعروس الليل شُيّعت إلى عريسها قبل الفجر.

ذاكرة الشيخوخة امرأة متجعّدة الضفائر كعتمة الليل، والحاضر لم يبق منه غير ذاكرة مهشّمة بوقْع المكان واحتضار الزمان.

بيروت ما زالت في الذاكرة.. لم أنس حكاية تشردي وغربتي وقهري.. عمري مضى، شاخت ذاكرتي وتراجعت إلى الوراء تحمل هموم الماضي، تنقلها للحاضر، وتعيش في السراديب المعتمة مع المستقبل.. السلام الذي بدا جميلاً وكبيراً، أضحى خيبة تسكن النفوس، بعد أن تهاوت الآمال والطموحات على أرض الواقع.

ذات ليلة، وبعد ليال مسهّدة وأيام طويلة، قرّرتُ أن أنسى كل شيء وأعود إلى مهد طفولتي، أتنسّم ربيع الأرض التي تربّيت فيها وعلى ترابها، وطن التفاؤل والأمل.. ليلتها لم أنم، رحت أحلم برؤية أقارب طال الشوق والحنين إليهم، وعند الفجر حملت كل أشواقي ومحبتي في حقائب سفر، واتجهت برفقة أسرتي إلى عمان.

توقّفت الحافلة التي تقلّني وعائلتي مع ركاب آخرين عند الجسر، انتفض قلبي.. شعرتُ أنه عصفور هزّ رأسه ونفض ريشه بعد أن شرب ورطّب جناحيه بالماء، وأحس بجسده يرتعش كنسيج حريري دقيق.

كوهج المطر المسافر صوب الأرض العطشى، سافرت أفكاري بلا مرفأ ينتظرها.. في الذاكرة ضفاف نهر ومقاتلون، طلقات تصم الآذان، وصُوَر تتزاحم في حجرات القلب.. النهر فتح باب الذاكرة ورحل.. دخلت الأيام والأمكنة والشخوص في ذاكرتي ولم تبرحها، الماضي وجع والذاكرة مستباحة.. ذاكرة لا تكف عن الدوران في أوراق صفراء بعيدة، كاميرا تدور في أعماقي وتلتقط التفاصيل الصغيرة.. في الذاكرة مشهد قديم مغمور بالضباب والغابات وزقزقة العصافير، تماوجت الأفكار في رأسي واهتزت كتماوج سنابل القمح.. لا رصاص، ولا قذائف.. منذ عهد بعيد يُقاس بآلاف الأعوام اختفت طيور النار، ضاعت في قطرات النهر، هجعت الشمس تحت معاطف المقاتلين المبتلّة وقد عبروا النهر عائدين بعد عملية فدائية.. كلما سطعت الشمس عليهم ازدادوا بريقاً ولمعاناً، يتحركون مثل انسياب مياه النهر، ويزحفون مثل رماله.. يغرسون أنفسهم على ضفتيه كأشجار الصنوبر والبرتقال، آثارهم تقول أنهم مروا من هذا المكان.. زرعوا الورود الحمراء، وتركوها لأجيال قادمة تتفتّح على جانبيه، برائحة المسك وشذا العنبر وزهور الياسمين.

***

تسلقت الحافلة الجبال وسط شوارع جديدة وعريضة ووصلت مشارف عمان.. عمان لم تغب عن البال، مازالت تسكن حبات العيون وجنبات القلب.. تجري في كياني وعروقي مثل زغرودة فرح.. مدينة مفتوحة، قلوب مفتوحة، وأبواب بلا أقفال.

رائحة عمان تنفذ إلى داخلي من آلاف المسام، تسكن تحت جلدي وفوق أهدابي، تحتويني دائماً كعطر أنثوي.. في عمان يكبر المرء رغماً عنه، تسير به السنون هاربة من لحظة اكتشاف قاسية، يعرف فيها "كم هو مُغفّل!" حين تمادى به العمر، وترك هذا الوطن الجميل.

في عمان، استقر بي المقام في بيت والدي، الذي توفاه الله أثناء غربتي دون أن أراه أو أودّعه.. والدتي هي التي رحّبت بي وأسكنتني في حجرتها.. أغرقتني بالأسئلة والدموع تملأ عينيها، احتضنتني واحتضنت أبنائي، قبّلتهم وضمّتهم إلى صدرها، شمّت وتنفسّت رائحة الوطن في ثيابهم، وقالت إن ولدي الأكبر يشبه عمه الشهيد.. سألتْني إذا كنت قد زرت قريتي ومسقط رأسي، أو القدس، وكحّلتُ عينيّ بالتراب المقدس، واستحلفتْني إذا كنت قد قرأت الفاتحة عن روح الشهيد، وعن روح والدي في المسجد الأقصى، وجلستْ والخرقة البيضاء الواسعة تغطي رأسها، ترقب مفتاح بيتها الحديدي الكبير المعلّق على الجدار، بجانب صورة ولدها الشهيد، تعيد ذكرياتها وتشحنها من جديد.. ثم عادت وسألتني عن الدار التي تركتْها مغلقة، وعن أشجار الزيتون

وكروم العنب.. وانا أطمئنها أن الدنيا ما زالت بخير، وستعود بإذن الله كما سيعود كل المشردين عن ديارهم إلى الوطن في القريب العاجل، لكني لم أجرؤ أمام دموعها أن أقول لها أن القرية دُمّرت عن بكرة أبيها، ومليئة بأشجار الصبار، بعد أن أُقتلعت من أرضها أشجار الزيتون والتفاح والرمان واللوز واختفت منها كروم العنب، وأن معالمها اندثرتْ.. فقط حجارتها الرومانية الكبيرة هي الدليل الوحيد على أن قرية كانت هناك، ولا زالت قبورها التي تضم رفات الأجداد، تدعو الأحفاد لزيارتها، وقراءة الفاتحة على أرواحهم وأرواح الشهداء.

لم تصمت والدتي عن الكلام منذ عودتي، وكلما حاولتُ الولوج إلى غرفة النوم، كانت تحثّني على الجلوس لدقائق أخرى، فهي "لم تشبع من رؤيتي"، كما قالت، تجلس أمامي وتسرد لأبنائي حكايا القهر والتشرد من جديد.

كانت تُمزّق الحكايات ولا تجمعها، تمزجها بطريقة عشوائية، تقفز من شهر إلى شهر، ومن قرية إلى أخرى، تروي عن ذكرياتها وتتحدث بأسى عن عام النكبة وأيام الهجرة، وكأنها تُمزّق ما علق بذاكرتها لتلصقه بذاكرة أخرى.. تغبش الرؤيا أمام ناظريها، تمسح دموعها بخرقتها البيضاء وتبكي بحرقة.. وتحفظ كل واردة وشاردة عن ظهر قلب.

أضافت والدتي: "كان أبوك - الله يرحمه - نِفْسه يشوفك بعد ما ذاق الحسرة يوم استشهد أخوك.. وظل يتذكر يوم الهجرة وهو يحملك على ظهره، يومها قال: "احملي الصاحي واتركي النائم"، حملك ابوك على ظهره، وركضت أنا وحملت اخوك عبد الله في حضني، وكان حليبي يدرّ وينقّع صدري قبل ما أرضّعه".

تتواصل حوارية الأجيال، وتتواصل حكايا والدتي، وتسافر ذاكرتها إلى الماضي البعيد، تتوالد حكايات جديدة، فالتاريخ لا يملك حكاية واحدة عن الرحيل والنكبة، التاريخ له مئات الروايات المختلفة، وكلها تقود إلى الخيانة والهجرة.

"الحكايات كانت مشوّشة مثل ذاكرة والدك تماماً، أنت كنت طفلاً ووالدك كان في الثامنة والأربعين من عمره، وحين كبر نسي الكثير من الأحداث، وعندما استشهد أخوك في جنوب لبنان تذكّر كل شيء، وتكلّم كثيراً، عادت ذاكرته تتوالد من جديد، تلاشت البطولات وسط سيل النازحين الذين اجتازوا الحقول والنهر والغابات، وعاد يتذكر كل تفاصيل النكبة والهجرة والنزوح، وتتجمّع في عينيه مثل نقاط الدموع المختلطة بالرمل.

تلك الأيام السود سمعنا عن سقوط المدن الساحلية، وبدأ اليهود يتقدمون نحو القدس والقرى المحيطة بها.. رحل معظم سكان القرى أثناء المعارك التي دارت حول القسطل، تفرّق الشيوخ والنساء والأطفال بين التلال وأشجار الزيتون، وفي المغاور

والمحاجر، ولم يبق في القرية غير الشباب المدافعين عنها، كانت القرية مثل بركان، وكنا نرى وميض مدافع اليهود في الهواء وهي تدك القرى المحيطة بنا.

كان الناس مذعورين، وصرخات الرعب والفزع تتعالى بعد أن استشهد عبد القادر الحسيني، لم يبق لديهم حيلة للمقاومة، انهار الثوار وتفرّقوا وقُصِمت ظهورهم، وتراجعت الجيوش العربية إلى الوراء.

قاوم الثوار عدة أشهر، كان اليهود يطلقون النار بانتظام وبكل أنواع الأسلحة، والعرب يردون من أسلحتهم الخفيفة بلا نظام.. القذائف لم ترحم الشيوخ ولا النساء ولا الأطفال، وراحت المدافع تقصفهم داخل المغاور والكهوف والكروم.

حملنا القليل والضروري من أغراضنا قبل رحيلنا، وكان بعض الشباب يتسلّلون ويرجعون إلى القرية، ويعودون ببعض الطعام من بيوتهم أو أراضيهم ليطعموا أولادهم، وكان الجميع يأكلون خبز الطابون والبصل والعدس وكل ما تطاله أيديهم من خيرات الأرض، وكثير منهم مات قبل أن يعود لعياله.

لم يكن أحد يدري ما الذي سيحدث، كانوا يقولون مَن يبقى في البلد تحت سيطرة اليهود يُعتبر خائناً، وكانت الناس تخاف من بعضها، اليهود نهبوا كل شيء وسرقوا أغراض الناس، أخذوا قطعاناً كاملة من الماشية.

في الأيام الأخيرة عاد بعض الرجال مخاطرين بأرواحهم لأخذ حاجاتهم الضرورية من منازلهم، فوجدوا القرية مدمّرة عن بكرة أبيها، ولم يبق فيها يهودي واحد بعد أن زرعوها بالألغام، وكانت أخبار مذبحة دير ياسين تُرعب الناس، حتى الحوامل أسقطن ما في بطونهن من الخوف بعد أخبار المذبحة.. لم يكن مع المدافعين سلاح يُذكر، الناس كانت فقيرة، وكانوا يُطلقون النار على الطائرات ببواريدهم مثل مَن يرجم الدبابات بالحجارة.

رحيل الناس كان يشبه يوم القيامة، كُتل بشرية ضائعة، ولا أحد يشاور غيره فيما يفعل، بعض الناس نسوا أولادهم، والكثير منهم ضيّعوا بناتهم.. اجتزنا عدة قرى، وكانت كلها مدمرة، حتى الجسر على النهر كان مدمراً.. مكثنا في بلدة الكرامة سنة، ثم رحلنا إلى عمان، وتفرق شملنا في البلاد العربية.

كأهل سبأ بعد طوفان سد مأرب تفرّق الأهل والأحباب في بقاع الأرض.. وما كان أحد يتصوّر أن الرحيل عن الوطن سيطول كل هذه السنين".

تصمت والدتي قليلاً، تجلس ووجهها باتجاه الغرب، تُحدّق في اللاشيء وترى قريتها كما يحلو لها أن تراها.. ولا تعرف أنّ مِن دموع الحزن نبتت أشجار الصبار في أرضها وارتوت.. ترفع يديها إلى السماء، وتبتهل إلى الله وتدعوه أن لا يميتها إلا على تراب الوطن، وأن لا تُدفن إلا في أرضه بعد أن تُصلي في

المسجد الأقصى.. فأرض فلسطين أقرب إلى السماء وإلى الجنة.. "كما قالت".. ثم تقوم وتمسح صورة ابنها الشهيد بقطعة قماش مبلّلة، وكأنها ترويها بالماء أو الدموع، تبكي بصمت وحرقة، وتقول لي بصوت رقيق: "خذني يمّه إلى قبر أخوك في لبنان أقرأ له الفاتحة، والله نفسي أشوفه وأموت"، وتبكي بحرقة.. فأقول لها بألا تبكبه، فهو شهيد، والشهيد حي يُرزق عند الله، ولا يجوز عليه إلاّ الرحّمة وقراءة الفاتحة.

تصمت قليلاً والدموع تملأ مقلتيها وتقول" "شهيد أو حيّ، الله يرحمه، لكن الموت هو الموت، والفراق هو الفراق".. وحين تشعر بالراحة، تتأوّه وتقول بحسرة: "يا ولداه.. انخلع الباب وتفرّق الأحباب، أصبح كل حيّ في دنيا.. اتفو على هالدنيا".. وفي ساعات الصباح تجمع أبنائي حولها، تسرد على مسامعهم حكاياها من جديد، تُغذّيهم بكلمات العودة وحب فلسطين، وتُذكّرهم أن عمّهم استشهد من أجل استرجاع الوطن الغالي، وأن عليهم أن يكملوا المشوار الذي بدأ ولم ينته بعد.. ومريم تتوسّل إليها أن تُبعد شبح الموت عنهم.. فقد استشهد الآلاف من أجل أن يعيش أطفال فلسطين سعداء.. وآن لهم أن يحلموا مثل بقية أطفال العالم.

***

فالح

في عمان تناسيتُ الزمان الذي كنت أحمل فيه "روحي على راحتي"..الأحلام الكبيرة والصغيرة التي كنت ألوذ بها طويلاً تقلّصت، ضاعت الوجوه والأصوات في ارتحال المسافات، ثم عادت واشتعلت من جديد.. جحيم وهّج الأشياء، وبدأت النظرات تستفيق على أصدقاء العمر القدامى.

فالح كان أول من قابلته من المتقاعدين الكسالى في عمان، لم يعد ذلك الشاب القوي العنيد، الذي عرفته منذ سنوات طويلة.. تغيّر فالح كثيراً، أصبح ضعيف البنية، أشيب الشعر، لا يكسو عظمه غير جلد رقيق أسمر، تقوّس ظهره وانحنت أكتافه، زادت تأوهاته وتوجّعاته واستسلم لهزائمه المتكررة، قال إنه يائس من الوضع، وما زال يُفكّر بالانتحار.

أفكار فالح هي الوحيدة التي لم تتغير، ما زالت سوداء، وما زال ناقماً على الحياة.. سألته عن غياهب غيبته الطويلة، تأوّه وقال إنه توّاق للحديث وشُرْب القهوة والتدخين والجلوس معي، بعد أن عرف أني عدت إلى الأردن وعرف مكان إقامتي.. وعندما سألته عن رفاق الأمس تنهّد وقال:

"خياراتهم كانت متعدّدة.. منهم من انتحر ومنهم من نحروه، منهم من ذهب في الصمت، ومنهم من ظل يهذي أو يكتب عما حصل معه، حتى عدّه الناس مجنوناً فتركوه وشأنه.. والكثير منهم ترك المعترك السياسي أو العسكري منذ سنوات طويلة، أما القِلّة ممن يحتفظون بأسلحتهم، فهم كمن يُخبّئ جمراً تحت ثيابه.. حازم وزياد موجودان في الأردن.. حازم متزوج وعنده ولدان وحالته المادية يُرثى لها، يعمل في صحيفة ويراسل صحيفة أخرى، أما زياد فقد تغيّر كثيراً، وحالته المادية تميل نحو الأفضل".

ليلتها سهرنا معاً.. استعاد فالح كل ماضيه وسنوات عمره، أبحر في مسامات طفولته، وغرق في متاهات شبابه، "دايماً هوّ ذاته.. المعثّر هوّ ذاته"..

تحدث فالح كثيراً تلك الليلة.. قال:

بعد أن أقلعت باخرتي من بيروت، شعرت أن السفينة التي تقلّني مع الراحلين بعيداً عن الموت والرصاص، كانت مثل قبر جماعي عائم، ولم أصدّق أني على قيد الحياة إلا عندما وطئت قدماي الأرض، لأجد نفسي في تونس.

في تونس كانت لي ولادة جديدة، بعد مئات المرات من الموت، ورغم أني قرّرت أن أنسى الماضي وأعيش مع حاضري ومستقبلي، إلا أن المقام لم يُعجبني أيضاً، فجأة ودون سابق إنذار غادرت باتجاه الغرب، بعد أن عثرت عن طريق المراسلة على

وظيفة شاغرة في صحيفة مغربية.. ولسنوات طويلة بقيتُ أتذكّر كيف كنت تائهاً في بيروت، ووحيداً في تلك المدينة.

قِلّة هم الذين يربحون الحياة، ولأني أعرف ذلك، وأعرف أن الماضي أصبح هشيماً تذروه الرياح، فقد قرّرتُ أن أعيش الحاضر فقط، بلا ماضٍ ودون أمل في المستقبل.

أول المدن كانت بالنسبة لي مراكش، بمآذنها المربعة وقرميدها الأحمر.. وأول امرأة كانت "نرجس" بعينيها الساحرتين وشعرها الأسود، الذي ينسدل على كتفيها كالليل المظلم.. حاصرتني تلك المرأة منذ لقائنا الأول في الصحيفة التي تعمل فيها مراسلة صحفية، شعرتُ أن قوّة لا مرئية قيّدتني إليها، وفي عينيها شاهدت حاضري ومستقبلي.. حاصرتها بكلماتي السحرية وقيّدتني بحبها.. وفي بيتي رحنا نرتشف كؤوس الحب ونتيه في الكلمات العاطفية قبل أن نثمل بأمل المستقبل ومشروعية العلاقة الزوجية.. وعندما أفقت، كنت أعيش حلماً لم أستيقظ منه حتى اللحظة.

شعرتُ أن بحوراً من العطر تنفجر في وجهي، وأنها والرؤيا شيئاً واحداً، ولم يخطر على بالي أن تسألني إذا كنت أرغب بالزواج منها!.. راوغتُ في جوابي، واستعرضت في ذاكرتي شريطاً عمّن عرفتهن في الماضي، فسوّلت لي نفسي أن أعيش معها متعة محرّمة.. وحين أصرّت على معرفة الجواب، تساءلت

في قرارة نفسي: "هل يمكن لإنسان تجري في عروقه خيبة قرون من الهزائم أن يعرف متعة الحب وحقيقة الزواج!".. ثم أعلنتُ صراحة على سماعها: "أني رجل غير مؤهّل في الوقت الحاضر للارتباط بأية امرأة على وجه الأرض".

بعد تلك الليلة فترت العلاقة بيننا، وانقطعت نرجس عن العمل فجأة.. شعرت بنفسي ضائعاً دون رؤيتها ذلك اليوم.. جلست في مكتبي حائراً، ورحت أفكر في نرجس، اعترفت لنفسي أني أحبها، ولا يمكن لحياتي أن تستمر بدونها.. فجأة، حزمتُ أمري نهائياً وقرّرت الارتباط بها، وعندما سألت عنها في اليوم التالي لأزفّ لها الخبر، قيل لي أنها تركت العمل، ولا يُعرف لها عنوان.

صغُرت الدنيا في عينيّ، ولم تعد تتّسع لحواسي وأفكاري، ولم أعد إلى عملي في الصحيفة.. رحتُ أجوب الشوارع بحثاً عنها، سألت عن عنوانها، درتُ كل أزقّة المدينة وأبحرتُ في حاراتها وشوارعها، لكني لم أجد لها أثراً، أظلمت الدنيا في عينيّ، توقّف تفكيري، فجأة وجدت نفسي أحمل حقيبتي وأحط بترحالي في القاهرة..

بعد أكثر من عام من القهر والعذاب والخيبة والفشل والضياع.. قرّرت الرحيل ثانية والعودة إلى عمان، الأمل والمستقبل.

***

أضاف فالح: في مطار عمان لم أكن أحمل معي غير حقيبة أفكاري، وذاكرتي التي تعود إلى الوراء، تسترجع صدى المرأة التي أظلت بشعرها الليل، وأفسحت المجال لأحلام العمر أن تغفو على صدرها.

أفكاري كانت شاردة وأحد رجال الأمن يقودني إلى غرفة جانبية، ويسألني عن الماضي، وعن غيبتي الطويلة وانتمائي السياسي، ولم أكن أعلم بعد ذلك أني لن أرى سماء عمان إلا من خلال نافذة صغيرة في سيارة عسكرية قادتني إلى السجن.

بعد وصولي السجن بلحظات أدخلوني إلى غرفة جانبية، قام حلاق بحلْق شعر رأسي حتى بدا كرأس سلحفاة.. أحسست أن السجن شيء رهيب، خاصة في الأيام الأولى التي قضيتها فيه.. أخذتُ أجوس أرجاء الزنزانة بنظراتي.. بدت لي سوداء قديمة وموحشة، شعرتُ بالاختناق، أطبقت عليّ الجدران، فتحت فمي وحرّكت صدغي، أخذت شهيقاً وزفيراً بصوت مخنوق، وأنا أحدّق باللاشيء، تحاملت على نفسي، اتكأت على الجدار، توسّلت إلى قدميّ حتى طاوعتاني على الحركة، نهضت محدودب الظهر محنيّ القامة، ومع ذلك بقيت حزيناً لا أتكلم مع أحد ولا أنطق بحرف.. نرجس كانت تتراءى لي في ذاكرتي، كنت أستحضرها وأتحدث إليها كل ليلة.. ثم بدأتُ أكتب لها كلمات منقوشة سطّرتُ فيها حكاياتي وعذاباتي وليالي الطويلة وسهدي ووحدتي.. شعرها الأسود كان أول الليل، كان أول ليل عشته بعد آخر ولادة لي،

عطرها أول عطر تنشقته في جسدٍ لم أستطع أن أعبر أسواره، ظل أمامي أرقبه بدهشة بدوي، بينما كانت تقف أمامي كآلهة يونانية.. أنا الوحيد الذي أتذكر كيف صدّتني عن جسدها، بعد أن فاتحتني بالزواج فتهرّبت من الجواب.. ليلتها شربتُ بغير وعي، بينما ظلّت صامتة طوال الوقت.

في السجن عاودني ندم تلك الليلة، وطاف بي الشوق لرؤيتها، أضربتُ عن الطعام لأيام خمسة، لكن الحاجة كانت تلتهم عزيمتي تدريجياً، بعد أن تركني الجوع بلا إرادة ولا تصميم.. تهدّل كتفاي، تغضّن وجهي وانتفخت عيناي، هرمت وكبرت عشرين عاماً في خمسة أيام، وطفقت أتكلم بصوت عالٍ حديثاً مشوّشاً، وأنا أذرع زنزانتي الضيقة بخطوات طفولية مقيّدة، وأحك رأسي ووجهي بأصابعي.. في السجن شعرتُ أني مقطوع عن الحياة، أعيش في عالم من الكوابيس، أتذكر الماضي فقط، وأحلم بالموت والرصاص والنفي ورؤية من قابلتهم في الحياة.. هناك في ظلمات السجن اختفت الملامح واختفى السقف أيضاً، تلاشت الصور، الجدران حجبت البصر، وتولّد عندي إحساس بفقدان الحرية والموت معاً.

في عتمة السجن شعرتُ أني فقدت الحياة والموت، فقدت إحساسي بالزمن.. العذاب الأقصى أن يُحرم الإنسان من الوقت، ويدخل في أبدية العذاب.. زحفتْ ذكريات طفولتي وصباي وغربتي إلى ذاكرتي، وحين استهلكت مخزوني عمدت إلى

التشبّث بما بقي لي من قوة جسدية، أخذت أصارع نفسي، نجحت في الجلوس القرفصاء، بعد أيام تم نقلي إلى مهجع أكبر، لأختلط بالمساجين وأتنفس بينهم نسيم الحرية.

سنوات طويلة مرّت، حفرت أخاديد عميقة في وجهي، نبت لي شعر أبيض، تغيّرت هيئتي، نحل جسدي، ضعف بصري أيضاً، ولم يعد بداخلي سوى الأمل أن أرى نرجس ثانية.. ذلك الحب الذي دعم قلبي في مواجهة الآلام واليأس، وأعاد لنفسي الأمل في الحياة.

قادتني أحلامي إلى عالم نرجسي بعيد، سافرتُ بخيالي وأحلامي إلى المغرب، استعدت هالتها النورانية وعالمها من جديد، شعرت أن ذهني عاد صافياً، وأن عزلتي التي أعيشها داخل السجن لا شيء أمام عالم الحب.. جبتُ بلاد المغرب ثانية من خلال رسائل بعثت بها من داخل السجن إلى معارفي وأصدقائي أسألهم عنها، لكن جواباً واحداً لم يصلني.

ذات ليلة، قفزتُ من نومي مذعوراً وطلبت مقابلة مدير السجن، لكن أحداً لم يفتح لي الباب، بقيت طيلة الليل واقفاً قربه ملتصقاً به.. عند الصباح اقتادوني إلى الضابط، سألته عن الاتهام المسجّل بحقي حتى يستمر سجني طيلة هذه المدة!.. قال الضابط أني سجين سياسي، ولا يُسمح بالإفراج عني إلا بقرار سياسي أيضاً.

- أريد أن أعرف إذا كانت المدة التي سأقضيها في السجن بعقوبة جسدية أم لا!؟.. سألت الضابط.

استغرب الضابط سؤالي وقال: "لا أفهم ما ترمي إليه!".

- أريد أن أعرف إذا كان مسجّلاً بحقّي أن أعيش مع المحكومين بتُهم اللواط والشذوذ الجنسي أم لا!، فأنا لا أعرف النوم، وطيلة الليل أخشى على نفسي منهم.

ضحك الضابط طويلاً وقال:

- كنت اعتقد أنك لا تعرف الخوف، لكنني أعرف إنك إنسان سوي وأخلاقك عالية، لذا سأنقلك إلى مهجع أخر للتفرّغ لكتاباتك ومقالاتك الأدبية، التي تنشرها من داخل السجن، بشرط..
- أنا موافق على كل الشروط..
- شرط أن تكون مسؤولاً عن مكتبة السجن، وتعطي محاضرات ثقافية وأدبية للمحكومين.

بعد ذلك اليوم، شعرتُ أني امتلك زمام حريتي في سجني، أحسست أن الحياة عادت لروحي وأنا أغوص في القراءة والكتابة من جديد، وتمنيت لو تدوم أيامي في السجن.. وفي اليوم الذي أُعلن فيه عن إخلاء سبيلي، فوجئت برسالة عشق مُثقلة بالدموع من نرجس الحبيبة المفقودة.. مادت الدنيا تحت قدميّ، وثارت البراكين في أعماقي، وارتميت على أقرب مقعد.

تلك الليلة احتفلت بخروجي من السجن وبلقائها ثانية، لكن بُعدها عني أسقطني في بئر أحزاني، فشربتُ حتى الثمالة.

صورتها كانت تتراءى لى أمام عينيّ من جُبّ سحيق، وأنا أقرأ رسالتها للمرة العاشرة، تعرّقت يداي على الرسالة وتندّى جبيني، شعرت بالحرارة والبرودة معاً، وعينيها تناديني بكل ما تحمله عيون النساء من حلم ودموع.. كنت أعضّ شفتي السفلى وأنا أستعيد صورة وجهها، امرأة بعيدة تعيش في صدري.. شعرت بحاجتي لوقت حتى أسترد أنفاسي بعد هذه الرؤيا.. تسلل النعاس إلى جسدي، غفوت ونور الفجر الرمادي يختلط بحبات البرَد والريح الهائجة.

***

أضاف فالح: بعد ثماني سنوات استطعت الوصول إلى نرجس ثانية.. كنت قد وصلت إلى خريف عمري، بينما كانت نرجس في ربيع شبابها، واقترنت بها بعد الثامنة والأربعين من عمري.

بدت لي الحياة مُملّة بعد سنوات قليلة من الزواج، كما بدت لي الذكريات وكأنها تمشي طبقات كثيرة على شفتيّ، بدأت أرتعش، أُدرِك أني أضعتُ أشياءً كثيرة من عمري.. ذات ليلة أشعلت النور في الغرفة وقفزت من سريري، تأملت وجهي جيداً في المرآة، اجتاحتني رغبة قوية في أن أحطّم المرآة، لأتجنّب رؤية الهزيمة المطلة من أعماق عينيّ.. تمنيت لو أنسى كل شيء،

وأهرب من عالمي.. حاولت أن أمحو هذا الفصل أو ذاك من سجل ذاكرتي، لكن عبثاً، فالماضي سكين حاد يطارد الحاضر أينما حل وارتحل.

توالت عليّ الإنكسارات، أصبحتُ ضعيف البنية لا يكسو عظمي سوى جلد رقيق، حياتي تحوّلت إلى رحلة قهر يومي طويل، ومسيرة أمل ذوى تحت الرايات المنكسرة في مختلف ميادين حياتي العملية، الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، ولم يبق لي سوى عقلي وفكري.. تقمّصتُ من خلال قراءاتي المتواصلة شخصية الأمير ميشكين في رائعة ديستيوفسكي "الأبله"، ووجدت نفسي أعيش حياته، ولا أستطيع الإفلات من شخصيته، كنت أفكر بالحب وأنزع إلى الانتحار، هاجسي الكبير أن أضع حداً لنهايتي، وأردّد أنه مسك الختام.

قادتني فلسفتي لتشكيل قرابة معنوية بين الناس، لكن الأصدقاء خذلوني، وتخلّوا عني زمن القهر والحاجة.. إنهم أصدقاء متعفّنون من الداخل.. أعرف أن أفكاري تُمثّل مرحلة متقدمة، كما أعرف أني سليط اللسان، يخشاه الجميع.. قرأتُ المذاهب وتوقفت عند الصوفية، وجدتُ أنها تقود الإنسان إلى الحقيقة.. وحين كنت أنظر إلى السماء وأقرأ الكتب الفلكية والعلمية الحديثة، أؤكّد لنفسي أن هذا الكون لا بُدّ من منظّم له، لكني لا أجده في نفسي.. أنا أبحث عما وراء هذا الكون، لكني لا أصل إلى نتيجة.

صارت أزمتي روحية داخليه، نزعتي علمانية، حقيقة أبدية أزلية لا يمكن للعقل الوصول إليها.. في رأيي أن الحب لا يوجد إلا مقروناً بالتضحية، ودائماً أبدو متشائماً ونغماتي مجروحة.. مع نرجس كنت كالقابض على جمرة من نار، تحرقني وتحرقها، فهي مثالية حالمة، حلّقت فوق الواقع رغم معايشتها لرجل واقعي، شعرتْ أنه يعوقها عن الحياة، ويرجع بها إلى الوراء.. كانت زوجة ولا زوجة، حبيبة ولا حبيبة، عشيقة ولا عشيقة، علقت في خيوطي العنكبوتية ولم تعد قادرة على الخروج من الشرنقة على ما هي عليه من وهن.. وحين بحثتْ عن أسباب انكساري ووجعي الجوّاني.. أحالت كل أسباب تعاستها معي إلى أحوالي الاقتصادية، فما همّها إذا كان زوجها كاتباً أو مستشاراً ثقافياً، ولا يستطيع إسعادها كما لا يستطيع أن يطعمها ويشبعها أو يكسوها!؟.. ماذا تريد المرأة من الرجل المثقف الفاشل اقتصادياً!، هل تأكل كتبه وثقافته!، أم تلبس أفكاره!.. تناغمت أسئلتها مع شريط الكاسيت الذي أسمعه دوماً بصوت زياد الرحباني وأحفظه عن ظهر قلب..

"على كلٍ على كل حال.. يعني في كل الأحوال..
حبي راس مالي وهيّاني قبالك..
لا هدية جايب ولا أموال..
راح أقولّك دُغري.. أحوالي ما بتغري..
ورّثوني المكنسة.. وطْلعت زبّال"..

شعرتْ نرجس أنها تمضي معي بقاربٍ ضد التيار وبدون شراع، وأنا أعدها بتأليف كتاب جديد وحلْم جديد.. يصدر الكتاب ويموت القارئ في الوطن العربي، ويستولي الناشر على أتعابه وأتعابي وحصيلة فكري، فيزيد إفلاسي وقهري، وتزيد تعاستها.

***

كثيراً ما كانت نرجس تدفعني للعمل الإضافي، تهزني من أعماقي بكلمات جارحة، لأترك الكتاب الذي بين يديّ وأخرج من البيت، لكني كنت أغلق الباب على نفسي وأعيش عالمي الخاص، أتقمّص بطل الرواية التي أطالعها أو أكتبها وأعيش آلامه وأحلامه.. وكثيراً ما كان يأتيني الأصدقاء يطرقون بابي، لكني لا أفتح لهم، أتظاهر بعدم وجودي في البيت، ولم أكن أفتح الباب إلا لمن أريد لهم أن يشاركوني لحظة نشوتي وغيبوبتي، وكانت كلمة السر بيننا "شُرُم بُرُم"، ما أن أسمعها من أحد الزائرين بعد دقّات معيّنة ومعدودة، حتى أهبّ وأفتح الباب، ثم أعاود إغلاقه من جديد.. ومع كل هذا فقد كانت نظرتي للحياة نظرة إنسانية مثالية، أعرف أني إذا حُرمت من القراءة والكتابة، حُرمت من ثقافتي وحياتي، وحُرمت من ثروتي التي لا تعرف البلى.. وأردّد على الدوام " اثنان لا يشبعان من الكتب والأوراق، الفئران والأدباء".

***

ذات ليلة قالت لي معاتبة: "سوف تفقد عقلك من جراء هذه القراءة، أنت تنقصك المادة ولا تنقصك القراءة ولا المعرفة، ماذا

تستفيد من قراءاتك وكتاباتك التي لا تُمكّنك من شراء زوج من الجوارب لك، أو قميص نوم لي، أو ثياباً جديدة لابنتيك!.. لقد أحلْتَ حياتي إلى جحيم".

التزمتُ الصمت أمام كلماتها ولم أنطق بحرف، رحت أنظر إليها بدهشة وبلاهة، وكأنها لم تكن نرجس التي أعرفها جيداً، وتعرف حقيقتي ككاتب وقارئ جيد.. أضافت: "الذين يعملون بأيديهم ينجحون بربع ما لديك من دراية ومعرفة، انظر إلى عينيك كيف استهلكتهما في القراءة والكتابة ليقولوا عنك ناجحاً".

لا أدري كيف صفعتها للمرة الأولى في حياتنا الزوجية تلك اللحظة، وهي لا تدري كيف أسرعتْ إلى أقرب مخطوطة ومزّقتها، فزدتها صفعاً، وزادت تمزيقاً في كتبي.. وحين هدأت ثورتنا، راحت تبكي بألم، ولم يعد يبين في وجهها من لون سوى صبغة شفتيها الحمراء.. بينما رحت أشرب الكحول حتى فقدت وعيي.. وعلى مدى الأيام التالية بقيت مخنوق العبارات مخطوف اللون، كئيباً صامتاً وحزيناً، تفوح مني رائحة الخمر.. يعلو صوتي بالسباب والشتائم.. أهجر البيت نهاراً وألتجئ إلى بيوت الأصدقاء، وأقول علناً أن "النساء أصل البلايا، استمع إليهن وخالفهن، سلالة حواء، الأفعى"، وعندما تسألني وأنا أهم بمغادرة البيت "إلى أين؟"، كنت أرمقها وأختصر مشواري بتهكّم: "إلى جهنّم".

فيما بعد، أقنعتُ نفسي أن الاقتصاد قبل الوطن، فكّرتُ بالرحيل إلى دولة أخرى، والمهادنة في سبيل لقمة العيش، غير أني تراجعت في اللحظة الأخيرة، وآثرت الجوع على الرحيل والاستسلام.

في وحدتي، كنت أعاني من سكرات عذاب بالغ، ظلال حُزْن كربلائي يطاردني بعنف، وكثيراً ما كنت أتقلّب في سريري محاولاً النوم دون جدوى.. نرجس كانت الروح والأمل والموهبة بالنسبة لي، رغم كل ما جرّته عليّ من متاعب في حياتي.. لكني عاودتُ الكتابة عن حبي مدافعاً عن ذلك الحب الذي أمدّني بالحياة، كتبتُ عنها كتابات راهب أو متصوف فاضت روحه في حب مخلوق روحاني، شعرتُ أن حبي لها حوّلني إلى عاشق فيلسوف، أنبت كل حكايات العشق قديمها وحديثها، وكتبتها عنها.. مكلوم بالحب، متصوّف بِعشْق امرأة لا يرى النور إلا من خلال عينيها، ويعرف أن من يكتب عن هذا العشق، لا بُدّ أن تتكسّر كلماته وتضيق معانيها أمام المعاناة التي تتولّد في أعماقه.. وحين كنت أستلقي على ظهري، موسّداً ذراعي تحت رأسها، أتصوّر أن المستحيل قد وقع، وأن الزمن قد توقّف.

نرجس طويلة القامة، بيضاء البشرة، أما عيناها فكانتا كعيون الأطفال عسليتين ساحرتين، وشعرها أسود كالليل ينسدل على منكبيها، ممتداً مثل الينابيع، كنت أغمرها بذراعيّ كالغيمة عندما

أتكلم، وتبكي على صدري كطفلة.. معها كنت أفقد عقلي، تتوقّد أحلامي، وأسكن في عالم لا أملك فيه دونها شيئاً.

لاحظتْ نرجس مرّة أن يديّ ترتجفان، نظرتْ إلى وجهي، بدا في الضوء الخافت شاحباً وأكبر سناً في عينيها، أحسّت بحبّ مؤلم حيال هذا الرجل الذي يحتضنها، بكت من جديد، التصقت بي، وتمنّت لو تستطيع أن تكبر مثلي لتعرف ما يدور في رأسي، أو أصغر مثلها لأمنحها الحب الحقيقي، وأعيد إلى روحها الحياة.

أعرف شعور نرجس نحوي تماماً، وأعرف أن معنى السعادة والشقاء لا يمكن أن يدركه إلا أولئك الذين جرّبوه في أذهانهم من قبل، الذين عضّوا بنواجذهم على منديل مبلّل بالدموع، ومزّقوه إرباً بأسنانهم من فرط الحزن، لهذا تركتها تبكي وحيدة، وجلستُ في مكتبي، تناولتُ قلماً وبدأت أكتب، لحقتني والدموع في عينيها ووقفت تتابع ما أكتب "وحيداً كنت.. وأمضي غريباً.. أحسّ بغربتي التي تشرّبْتُها حتى أنِسْتها قبل حضورِك.. لولاكِ لمتُّ غريباً، ولو عرفتُ كل الناس وكل العلوم"*

سألتني وهي تمسح دموعها: "لماذا تكتب بخط كبير!".

قلت دون أن أترك القلم: "وأنتِ لماذا تتكلمين بصوت مرتفع!".. وحين لم أسمع جواباً أضفت: "العمر، تقادم السنين، يجعل المرء يسمع بعقله ما لا يُقال، ويرى ببصيرته ما لا يُكتب.. أكتب بخط كبير حتى تتضح لي الرؤيا، وأرى ما بين السطور..

عندما يخف نظر المرء يكتب بخط أكبر، وعندما يخفت سمعه يتكلم بصوت أعلى"، وأضفت مستغلاً صمتها "في تقادمنا عبر السنين، يذوي العمر قبل أوانه، ولا تعود الأسرار تستهوينا.. تضمحل بنا ارتعاشة التساؤل، ونبض الاندهاش وبراءة حضورنا الكوني".*

همست في أذني: "بالحب فقط، ثمة إمكانية لسفينتنا أن تنجو من الطوفان والغرق".. قلت بتأوه: "من قال أن الأيام صادقة.. وأن سحابات الزمن جميعها مذخورة بالمزن.. ها نحن نرى الأفق منعقد غمامه.. والغمامة تترى وراء الأخرى.. لا برْق، لا رعْد، ولا مطر يهمي.. فكيف لا تقتلنا الحسرة!". *

ورغم كل هذا الحب والعطاء، إلا أني كنت أفكر بوضع حدّ لحياتي والانتحار، ولم أستطع أن أتغلّب على وضعي المادي الذي يُشدّد الخناق عليّ، ويحيلني إلى العدم.

***

* من كتاب "ثلاثة نقوش محجوبة"، للكاتب والأديب فايز محمود.

فالح كان قلقاً ومتشائماً حتى الثمالة تلك الليلة، أضاف أنّ مالك البيت الذي يقيم فيه أقام دعوى عليه، لعدم تمكّنه من دفع الأجرة، وإنه لم يعد يأكل ولا يشرب ولا يقرأ ولا ينام ولا يقوم.. فقط يهرب ويتخفّى عن أعين الشرطة التي تبحث عنه، وتلاحقه لتسليمه طلب الحضور إلى المحكمة، مما دعاه للمجيء إليّ تلك الليلة.. وأضاف إنه اكتشف "أن المرأة كالإسفنجة، وسيلة امتصاص لجيوب الرجل"..

أضاف فالح: "كثيراً ما فكّرتُ بعقد مؤتمر صحفي أدعو اليه رجال الصحافة والإعلام ورجال الفكر والمثقفين، وفيه أعلن التخلي عن الكتابة، وأحرق أمام أعينهم كل مؤلفاتي المنشورة والمخطوطة، ثم أطلق على نفسي النار.. لكن ما كان يؤرقني أن أجد مسدساً صالحاً للاستعمال في هذه الايام، بعد أن كانت كافة انواع الاسلحة تباع على البسطات في شوارع بيروت".

أضاف أنه عرف بعد هذا العمر الطويل إنه مولود في فصل الخريف، وهذا يعني أنه مولود بفصل يبدأ بحرف الخاء.. وحرف الخاء يُذكّره باللقب الذي أطلقه عليه والده منذ طفولته في المفرق، عندما كان يناديه "خايب" بدل فالح.. وكذلك والدته التي كانت تدعوه "خالص".. وحرف الخاء يجر وراءه الخراب والخيانة والخوف، الخلاعة والخسارة والخمول والخذلان، الخبث والخبل والخطر، الخضوع والخفوق والخازوق، الخزي والخطيئة والخواء..

شعرتُ ان فالح ينطق بمونولوج طال احتباسه في صدره منذ زمن طويل.. فالح كان يخفي مقدرة غريبة على الإفساد والهدم، يرسل الكلام على عواهنه، ويتلاعب بالألفاظ، يسرح ويمرح ويُهرّج ويُدهش وينفعل.. قلت له إن حرف الخاء يدل أيضاً على الخير والخلود والخلق والخليقة والخبز والخصب، وكذلك الخد والخصر والخلع.. ضحك وقال:

- هذه كلمات أكبر مني، الشيطان أنساني كلمة الخلع.. لعنة الله على الشيطان.

لا شيء تغيّر في حياة فالح، لا شيء قابل للتغيير في حياته أيضاً بعد هذا العمر المنكسر.. "دايماً هوّ ذاته، المعثّر هوّ ذاته".. قابيل هو قابيل.. هابيل هو هابيل.. القتلة هم القتلة.. الأحلام هي المستقبل والفشل هو العذاب.

***

نعيم

في طريقي إلى البيت ذات مساء، توقّفتُ عند إحدى البقالات لشراء علبة دخان، توقّفت سيارة مرسيدس سوداء حديثة الصنع أمام البقالة، وراح سائقها يرقبني عن بعد، تجاهلتُ نظراته وهممت بمغادرة المكان، ترجّل السائق من سيارته واتجه نحوي مباشرة، قال: "مرحباً" ومدّ يده مصافحاً.. سلّمت عليه لكني لم أعرفه.. أضاف الرجل: "لقد عرفتك منذ أن شاهدتك.. ألم تعرفني بعد!".

نظرتُ إليه، تأمّلته وتمعّنت في تقاطيع وجهه.. رجل في العقد الخامس من عمره، طويل القامة عريضها، منتفخ البطن، شاربان أسودان تناثرت بينهما شعرات بيضاء.. أما شعر رأسه فكان واضحاً من خلال لمعانه تحت الأضواء أنه مصبوغ باللون الأسود، يضع في فيه مبسماً وبداخله سيجارة ينفث دخانها بفرح طفولي. قلت:

- وجهك يبدو مألوفاً، لكن ذاكرتي تخونني بعض الأحيان.
- لكني عرفتك منذ النظرة الأولى. قال وهو يبتسم

ابتسامته الهادئة لم تكن غريبة على مخيلتي.. فجأة تراكمت الصور وتزاحمت في ذاكرتي من جديد، وفي لحظات قليلة

استعدتُ كل التفاصيل التي أعرفها عنه، خاصة ونحن نتشارك في بيع بطاقات المعايدة مقابل الجامع الحسيني، وفي مدخل شارع بسمان سنوات الثانوية العامة.. كانت المرة الأخيرة التي قابلته فيها في بيروت قبل أكثر من ربع قرن، يوم سفره إلى دولة خليجية.. لقد تغير "نعيم" كثيراً وتغيرت معالم وجهه وجسده، لكن لكنته لم تتغير.. سلّمتُ عليه للمرة الثانية، تعانقنا هذه المرة، ولم يتركني تلك الليلة إلا بعد أن لبّيتُ دعوته بالسهر في بيته.

البيت كان مثل جناح فندق بخمسة نجوم، كان قصراً.. قال نعيم بتواضع مكشوف بعد أن أحضرت الخادمة الشاي، أن هذا البيت كلّفه أكثر من ربع مليون دينار، وأنه ينوي بيعه للإقامة في مكان أفضل.

تجاهلتُ حالة نعيم المادية، وسألته عن أخباره!.. قال إنه تزوج بعد عام من سفره، وولده الأصغر يواصل دراسته الجامعية في روسيا.. أضاف أنه تدبّر أمره في الخليج وعمل مهندساً في شركة أجنبية بعد أن ترك مهنته كمسّاح، وسافر إلى ألمانيا في دورة تدريب مندوباً عن الشركة.. وقد وفّقه الله في عمله ورزقه إلى أن ملك الملايين، فعاد إلى الأردن قبل خمسة أعوام وفتح عدة شركات للاستيراد والتصدير ليستثمر أمواله، بعد أن حج إلى بيت الله ورمى إبليس بسبع جمرات.. وعندما سألته عما يستورده ويُصدّره، قال:

- كل شيء في العالم أصبح هذه الأيام تجارة قابلة للتصدير والاستيراد، الكتابة، السياسة، الحرب، الفن، حتى النضال أصبح تجارة..
- أعتقد أن المناضل لا يرجو ربحاً أو تجارة في هذه الدنيا.. إنه يطلب الأجر والثواب من رب العالمين..

قاطعني: "المناضلون يستشهدون، ورجال السياسة يقبضون ثمن استشهادهم، إنها تجارة بطرق مختلفة"..

سرحتُ في عالمي الخاص ونعيم يتحدث.. وكأنّه أدرك حالتي المادية فغيّر حديثه، وخاض في غمار الأصحاب زمن الثانوية العامة.. قلت مازحاً: "كل هذه الأموال جمعتها بعد أن أخفقتَ في الثانوية العامة، فكيف لو نجحت!".

- لو نجحتُ، كنت التحقت بالجامعة، وأصبحتُ موظفاً.. قال وهو يبتسم.

على العشاء، سألني إذا كنت قد التقيتُ بمحمود!.

- لم أره منذ سنوات طويلة، ويبدو أنك تعرف أخباره..
- لم يعد محمود فقط أو الأستاذ محمود، أصبح الشيخ محمود، فقد أطلق للحيته العنان، وما زال يعمل مدرّساً وواعظاً دينياً..
- وما الغريب في ذلك!؟.
- الغريب تلك الشائعات التي تدور حوله.. فقد قيل أنه طُرد من الجزائر بعد علاقة مشبوهة مع إحدى طالباته.. وفي

عمان يُشاع أنه يصاحب امرأة متزوجة من رجل يعيش في أمريكا، وكثيراً ما شوهد في بيتها بحجة إعطاء ابنها دروساً خصوصية.

- ولماذا لا تُصدّق أنه يُدرّس ابنها، بينما صدّقت الإشاعات!.
- أنا لم أرَ بعيني، لكن معارفه يتقوّلون، ويلوكونه بألسنتهم.. وأنت تعرف كلام الناس..

شعرت أني بأمس الحاجة إلى سيجارة، أنفث دخانها بقهرٍ وصمت، تأملت السقف والجدران، وطفت ببصري أرجاء البيت.. وبينما كان نعيم يُنظّف مبسمه بمنديل من ورق الكلينكس، أشعلتُ السيجارة، وقلت: "أنا بدوري سأخبرك عمّا تعلّمته في حياتي من كلام الناس، تعلّمت قبل أن أبلغ العشرين من عمري أن أصدّق كل ما أسمع، وحتى سن الثلاثين كنت أصدّق نصف ما أسمع.. أما بعد الخمسين، فلم أعد أصدّق كلمة واحدة مما يقال ومما أسمع.. أشعر أن كل ما يقال على ألسنة الناس عن بعضهم البعض مجرد إشاعات ملفقة، وكأنحياتنا أكذوبة كبرى في العالم العربي. ثم قمت وغادرت المكان.

***

زياد

ذات مساء، فوجئت بشبح الرجل الطويل يطرق باب بيتي، ورغم أني لم أره منذ زمن طويل، إلا أن صورته لم تغب عن ذاكرتي لحظة واحدة، وعرفته منذ أن لمحته، لكني شعرتُ أنه لم يعد طويلاً كما كنت أراه سابقاً، بعد أن امتلأ جسمه وتجاوز الخمسين من عمره.. تعانقنا عند الباب، وفي داخل البيت جلس زياد وابتسامته المعهودة تملأ وجهه، قال: "كنت أعتقد أنك لن تعرفني بعد هذا العمر، لكنك خيّبت ظني!".

لم تُغيّر السنوات من نكهة روح زياد المرحة، غيّرت في شكله الخارجي فقط.. سلبت منه بقايا شعر رأسه وفسحت المجال لسالفين فضّيين، وبدوره عوّض عن ذلك بشاربين طغى فيهما الشعر الأبيض على الشعر الأسود.. وفي جلسته التي لم تدم لأكثر من نصف ساعة، تحدث كثيراً، وبدا كأنه يسابق الزمن بأفكاره.. قال إنه عاد إلى الأردن بعد حرب الخليج الثانية، وقد عمل أثناء غربته مدرّساً للغة الإنجليزية لمدة عامين، كما عمل مترجماً لإحدى الصحف، ومراسلاً لصحف أخرى.. وتنقّل في وظائف عديدة إلى أن استقر به المقام في

مجلة خليجية.. وبُحكم عمله في تلك المجلة زار معظم بلدان العالم، ولم يترك حلماً في خياله إلا وحاول تحقيقه.

أضاف زياد أنه تزوج بعد الخامسة والثلاثين من عمره وأنجب ولدين أحدهما أنهى الثانوية العامة والآخر في الصف التاسع، وإنه سعيد بعائلته، لكن حرب الخليج قصمت ظهره، فبعد أن اشترى أرضاً في عمان وبنى عليها بيتاً، نكبته الحرب وعاد بخفي حنين بعد أن خسر كل ممتلكاته في الكويت، ولم يعد يملك غير جدران بيته، والفتات من قوت يومه.

في الأردن بدأ بترميم نفسه من جديد، واستطاع خلال فترة وجيزة أن يصمد في وجه التيار، ويستعيد وضعه الصحفي والمادي.. عمل مراسلاً لصحيفة عربية تصدر في لندن، كما بدأ يكتب لعدة صحف تصدر في الأردن والخليج.. ورغم استقرار وضعه وتحسّن أحواله المادية، إلا أنه كان ناقماً على الوضع العربي عامة، وما بين لحظة وأخرى كان يزفر ويتأوه ويشعر بيأس من إصلاح العقول العربية التي لا تعرف "أنّ السياسة والاقتصاد وجهان لعملة واحدة، لكن الاقتصاد يحكم السياسة ويتغلّب عليها.. رجال الاقتصاد هم الذين يتحكّمون بعلماء السياسة في كل دول العالم، وهؤلاء هم رجال المصارف الذين يتحكّمون بالعالم.. أما في العالم العربي، فقد اختلط الحابل بالنابل، كثر الفساد والمفسدون، وراح رجال السياسة يحكمون ويتحكّمون بالاقتصاد، ويبعثرون ثرواتهم خارج محيط بلادهم،

وكان باستطاعتهم بما يملكون من ثروات أن يكونوا أسياد العالم".

أضاف: "عند العرب ثروات لا تأكلها النيران.. ومع ذلك هم أشد الناس فقراً وأقلهم تخطيطاً، أراضيهم عطشى، جفاف وقحط وفساد.. طردوا المثقفين وأصحاب الفكر من أوطانهم، وأدخلوا إليه غرباء أحدّ من الخناجر وأمضى من السيوف.. إنهم لا يعرفون أن لكل سياسي دوره في الحياة، وبعد أن يؤدّي هذا الدور يُترك على الأرصفة ليموت، أو يُقتل ويندثر ويزول إلى زوايا الإهمال والنسيان".

شعرتُ وزياد يتحدث، أنّ لكلماته نكهة خاصة، شُهُب ومشاعل مضيئة.. تغيّر زياد كثيراً، وتقدم بفكره عشرات السنين، وما زال يذكر أدق التفاصيل في حياته السابقة، يذكر أسماء من جلس معهم لو مرّة واحدة، يذكر اللحظات التافهة التي لا يسجّلها العقل ويفقدها بعد لحظات.. وخُيّل لي أن رأس زياد الذي فارقه الشعر تماماً يحوي بداخله حاسوباً عملاقاً، وأنه ما زال يتمتّع بصحة جيدة، رغم انقضاء السنين الظاهرة على ملامح وجهه.. وعندما قدّمت له الشاي ابتسم وقال: "كنت اعتقد انك ستقدّم بيرة أو.."

قاطعته:الصحة لم تعد تسمح بالمشروبات، لكن سأعوّضك في المرة القادمة..

- المرة القادمة ستكون في بيتي، سأنتظرك.

***

وليد

ترن ترن.. ترن ترن.. جرس الهاتف يرن وأنا ممدّد على السرير مرهقاً، أستنجد بإغفاءة قصيرة.. نظرتُ إلى الساعة، أشارت عقاربها إلى العاشرة وخمس دقائق مساء.. ترن ترن.. ترن ترن، جرس الهاتف ما زال يرن.. مددتُ يدي بتثاقل وتناولت السماعة: "ألو.."

- عندي لك مفاجأة، أحد الأصدقاء يرغب بالحديث معك. قال زياد، وتبعه صوت آخر:
- قيل لي أنك فارقت الحياة منذ زمن طويل. قال الصوت
- لم يحن الأجل بعد..
- طالما أنك حيّ تُرزق، تعال حتى أتأكد من نبض قلبك، أنا في بيت زياد.
- من المتحدث؟.
- إذن أنت ميّت فعلاً.. طالما لم تعرفني من نبرات صوتي، فأنت ميّت.

استرجعتُ كل مفقودات ذاكرتي خلال ثوان قليلة، نبشت الماضي والحاضر لأتذكّر صاحب الصوت الذي لزم الصمت، لم أفلح وخابت كل محاولاتي بالفشل.. عاد صوت زياد ثانية:

- هذه المرّة خيّبت ظني ولن أخبرك مَن المتحدث، تعال وتعرّف عليه بنفسك.

جمعتُ شتات أفكاري وتوجّهت إلى بيت زياد الذي أقامه على منطقة مرتفعة في محيط الجامعة الأردنية، هناك شاهدت "وليد".. غيوم قديمة بيضاء وسوداء مثقلة بأحداث ربع قرن مضى، تلاحقت واندفعت إلى ذاكرتي فجأة، وأخذت تعبر رأسي على شكل موجات تطارد بعضها بعضاً.. ابتسامة وليد الحزينة لم تفارق وجهه الأسمر، وعيناه ما زالتا حائرتين، تبحثان عن شيء افتقده طيلة حياته.. جسمه فقط تغيّر.. نحف وانحنت قامته، قدم إلى عمان زائراً من بلاد بعيدة يتبع أثر ذكرياته القديمة، ليشعل فيها النيران.

تلك الليلة، أبحرنا ثلاثتنا في الكلام والثرثرة، وطقوس التعارف والتفاهات المحيطة بنا.. بدت الذكريات حميمية ومؤلمة تشحن الأعصاب.. نزف وليد كل ما في داخله من وجع الكلمات، وهو يحكي حكايته منذ أن غادر بيروت حتى وصل بلغاريا.. لم يبرح وليد مخيّلتي، ما زال يقرع في طبول ذاكرتي ويُبحر في شراييني.. يقرأ الصحف، يكتب البيانات، يتابع الأحداث بشغف، يبتسم بشوق ويتحدث بيأس.

وليد هو الصمت والاستمرار.. كان يتحدث كثيراً ويصمت قليلاً، يتأمل السقف والجدران، ويعود للكلام من جديد.. قال:

لا أعرف لي أرضاً، لكني دائم التفكير بمعنى أن لا أكون بلا أرض أحبها، ولا أملك الحنين إلى أرض أخرى غير وطني..

سؤال دائم رافقني عبر المطارات والموانئ والأرصفة، عمان، الكرامة، دمشق، بيروت، نيقوسيا، القاهرة، تونس، لندن، موسكو، صوفيا.. لكني دائم الحنين إلى فلسطين التي لم أشاهدها إلا من خلال الصور والخرائط والتلفاز والذاكرة.. أنا عربي ممزّق حتى الشرايين.

في بلغاريا أعيش مع امرأة في بيت واحد، ومنذ سنوات أتساءل كل يوم، لماذا أعيش مع هذه المرأة الشقراء الطويلة القامة، وهل تُمثّل لي شيئاً في عالمي!.

مُطارَداً وصلت بلغاريا، ملتحقاً بعملي.. المدينة كبيرة، وفقدان أحلامي أفقدني كل شيء حتى وحدتي، لم أحلم بالزواج يوماً، لكني وجدت نفسي في أحضان هذه المرأة، التي تعيش في بيت ريفي في ضواحي صوفيا، في الوجه عينان ملوّنتان، خضراوان تميلان إلى الصفرة، أنف أفطس فوق شفتين رقيقتين، وجسد يميل إلى البدانة.. بعد أن شربتُ الكأس الرابع، وقضيت معها ليلة حب صاخبة.. شعرتُ أني بحاجة إلى وجود إنسان ما بجانبي وسط تلك المدينة الكبيرة، التي أعيش فيها غريباً ويائساً ووحيداً، أيّ إنسان على شكل امرأة.

فجأة وجدتُ الجواب، صدرها كان الجواب، نصر الفارس العربي في أحلامه.. قرّرتُ الزواج منها.. وحين حملت وأنجبت لي بنتاً، بدأت أتنبّأ بنهاياتي، وأن أحلامي الوطنية تراجعت وتكدّست في ظل امرأة وجدران أربعة.

حياتي حقل ألغام حقيقي يمتدّ على مساحة الكرة الأرضية.. كنت أعاني من إحساسي بالوحدة، ومن الوجوه التي ابتعدتُ عنها.. ابنتي كبرت، وتحوّلت في سنوات الجامعة الأولى إلى أهم فتاة، تقود المظاهرات وتحمل العبء الذي أورثتها إياه.. تُتقن اللغة العربية كما تُتقن اللغتين البلغارية والإنجليزية، وتتحدث عن القضية الفلسطينية بلغاتها الثلاث بطلاقة.. تقود الطلاب، تقيم الندوات لصالح هذه القضية التي أثقلتُ كاهلها بها.. لم تعد ابنتي، أصبحت مساعدتي وسكرتيرتي التي تشرف على ترتيب ملفاتي، وتُنظم مواعيدي وعلاقاتي مع العرب المقيمين في بلغاريا.

كنت بحاجة إلى الحب، أحببت زوجتي كما أحببت ابنتي، حتى أوقف سنوات التشرّد من حياتي، وأستقر من السفر الدائم.. وحين كنت أعود للماضي وأتذكر.. أتذكر اني لم أقرّر يوماً أن أحب زوجتي، لم أقرر أن أساكنها ذلك البيت المتواضع، المؤلَّف من غرفتين، الذي ورثته عن والدها المنحدر من أسرة بلغارية عريقة.. هي التي قررت كل شيء، وأنا الذي استجبتُ لها ولبّيتُ نداء قلبها.. كنت أحمل معي ملامحي العربية الصارمة، مقنعاً في كلامي، أتحدث بثقة وكأني أقنع نفسي.. لهذا أحبّتني وأنا أروي

لها ذكرياتي الضبابية البعيدة، منذ العام الذي أُغتصبت فيه فلسطين إلى حرب الأيام الحزيرانية الستة التي انتهت قبل أن تبدأ، انتهت قبل أن نستعمل السلاح، ولم نرَ أو نواجه أحداً.. أحبتني وأنا أترحّم على والدي، وهو يحدثني عن أفواج المهجّرين بأسمالهم البالية عام النكبة، يجرّون وراءهم قبائل أطفال شبه عراة، لوّحتهم الشمس وأتعبهم الترحال وقتلهم الجوع.. وأروى لها عمّا سمعته عن المذابح في دير ياسين وقبية وكفر قاسم وغزة.. ولم أكن أتوقف عن الحديث إلا لألتقط أنفاسي، ثم أعود للحديث من جديد، وزوجتي تستمع وترهف السمع لما أقول.. تتلقّط الأخبار وتنطلق إلى عملها، تروي ما سمعته وقد زادت عليه ضعفين.. وكانت تُفضّل أن تنام بلا عشاء على أن يمر يوم لا تسمع فيه أخباراً جديدة أقولها على مسامعها.

كانت زوجتي تعمل في مصنع للورق، وحين تعود إلى البيت، تُحضّر الطعام، تغسل ثيابي وتُرتّب أشيائي.. كنت بحاجة إلى وجود إنسان أتحدث إليه ويُشعرني بالدفء والحنان، اللذان فقدتهما منذ نعومة أظفاري، أحببتها، منحتها حبي الدفين وأحاسيسي.. شعرتْ أني أحبها حتى الجنون، حتى حدود الموت.. فوهبتني حنان الأم والزوجة والأخت وكل الأبناء.

أن أحبها، يعني أن أحب نفسي.. لم أعد أشرب لأثمل، بدأت أشرب لأصحو، أنا إنسان جادّ، والإنسان الجاد، جادّ ومخلص في كل شيء حتى في أحلامه، في تنظيمه السياسي، في عمله

القومي، في قراءاته وفي كتاباته، حتى في حبه لقضيته وزوجه وابنته.

فقدتُ الأمل من تحرير فلسطين خلال سنوات عمري القليلة الباقية في ظل المماطلات، المساومات والمفاوضات العلنية والسرية.. طال الانتظار، طالت الرحلة، طالت العودة، كانت العودة حلماً، أصبحت كابوساً، صار الكابوس رفيق درب، صارت الأحلام نقمة بعد أن غرقتُ في الغربة.. لهذا دفعتُ ابنتي لتواصل المشوار الذي عجزتُ عن مواصلته.. حقنتها ضد الاستسلام والزيف، غرست في شراييها مسلسل التشرد والوطن الغارق في الوحل، وفي الدم والجوع والفساد والاغتيالات.

لم تعد المشكلة التي تؤرقني وتقضّ مضجعي دائماً، كيف أستعيد حياتي بعد كل هزيمة؟.. بل كيف أضحّي بها لأبدأ حياة أخرى من أجل استعادة الفردوس!؟، كيف أغمض عينيّ ثم أفتحهما على عالم جديد!.. كنت أعاني النزع الأخير وأنا أحمل قضيتي ومدني وأتنقل بهما، حتى أصبحتُ أتحدث لغة أخرى غير لغتي العربية الأصيلة، وأرى الناس يأكلون وينامون ويمارسون الجنس ويثملون بشكل رديء.. أنا الآن أتذكر كل شيء.. أعود إلى الماضي فأجد كل من التقيتُ بهم يعيشون في الماضي بطريقتهم لا على طريقتي.. إنهم يعيشون الغياب والأحلام الرديئة، وينامون حتى ينسوا الماضي ويعودوا للحاضر.. الحاضر صار أجهزة فيديو وستالات، أجهزة انترنت وهواتف

محمولة.. والكل يجلس أمام شاشته الصغيرة، ويخترع بالصور والكلمات قصصاً وحكايات وأوطاناً له بدل الوطن الواحد.

لا شيء تغيّر، لا فرق بين الماضي والحاضر في المحيط العربي، البرامج الإذاعية تقليدية، ولم تتغيّر منذ عشرات السنين، البرامج التلفزيونية لم تتغير أيضاً منذ ثلاثين عاماً، رغم أن المحطات الفضائية صارت تُعد بالمئات، المعلومات لم تتقدم رغم أن العالم تقدم وتغيّر، حتى الوجوه الإذاعية والتلفزيونية لم يطرأ عليها أي تغيير ولم تتجدّد، الزنزانات لم تتغير هي الأخرى، السجون هي الوحيدة التي تغيرت، كبرت واتسعت وكثر جلادوها، وأخذت أمكنة أفضل في ضواحي المدن وفي الصحراء.

هذا الزمن الهارب من بين يديّ، لم يكن لديّ القدرة مع المتغيرات العالمية على التأثير فيه.. كنت أحلم بمدينة أسافر إليها، أستقر وأعيش فيها بسلام وأمان بعد بيروت.. وعندما اكتشفتُ خطئي عدت إلى مدينتي ثانية، فلم أعثر على أبوابها، وبقيت أبحث في عالمي عن مدينة جديدة وأفرّ من أخرى، حتى وصلت صوفيا التي كانت مشرعة الأبواب وبلا مفاتيح.

صوفيا مدينة غريبة عني، لكنها تُذكّرني بكل المدن العربية.. وحين كنت أروي لزوجتي عن داري البعيدة في مخيم اليرموك، الموجود على الطرف الآخر من دمشق الشام، وأخلص أن ما

ورثته عن والدي ليس الدار، وإنما الذكريات والوجه المتعب والسفر الدائم.. أروي لها أيضاً عن الهمّ الذي أحمله في صدري، عن محاولاتي وأصحابي أن يفعلوا شيئاً ليُجسّدوا الأحلام التي تربّوا عليها، لكنهم ضاعوا وتشرّدوا، ثم وجدوا أنفسهم في نهايات العمر أمام اللاشيء.. مُغلّفون بالأحلام المطفأة، والهزائم واليأس القاتل.

أنا لا أطمح إلى الشهرة، فقط أحلم بمنصب في الظل، يمكن من خلاله أن أقوم فيه بشيء من التغييرات دون كثير من الضجيج، ودون كثير من المتاعب.. أنا لست حزيناً فقط، بل خائباً أيضاً.. ضيّعتُ عمري في أشياء كثيرة، اكتشفت فيما بعد أنها ليست ذات قيمة في عالمي الجديد.. كان عليّ أن أكون أكثر قدرة على التلاؤم مع المتغيرات الحالية.. فالهزيمة ليست نهاية المطاف، يجب أن لا نعترف بها كما يجب أن لا نؤكدها، يجب الخروج من طوق الاختناق المفروض علينا، يجب أن نبثّ في الأجيال القادمة أفكاراً جديدة وأرواحاً جديدة أيضاً، لتُحقّق ما لم نستطع تحقيقه.. الدول تشيخ والحكام يشيخون، الحضارات تشيخ أيضاً، المدن، الإنسان، كل شيء يشيخ.. لكن الشيخوخة تدفع إلى بدء جديد، وإلى تجذير جديد.. إلى جيل مقاومة جديد، وانتفاضة جديدة ستأتي عاجلاً أو آجلاً كالطوفان.

***

وليد صاحب البشرة السمراء والوجه النحيف، حليق الشوارب، نحيل الجسم متوسط القامة.. رجل المبادئ في الزمن الرديء.. كان صادقاً طيب القلب، يُتقن لعبة السياسة ويمارسها بنقاء، عاش مأساة جيله، وفقد الكثير من أصدقائه، ومع ذلك ظل صامداً بين الرصاص والموت والمنفى.

كلمات وليد ما زال رجعها يرن في الذاكرة: "كلنا سنموت.. الأغنياء يموتون والفقراء يموتون.. الثوار والمناضلون يموتون أيضاً، الكل سيموت، لكن الوطن لن يموت، وسيأتي قطار جديد يحمل أجيالاً جديدة تُحقّق ما عجز الراحلون عن تحقيقه".

تلك الليلة ووليد يفرض ذاته ويستعيد ذكرياته.. حاول الإقلاع عن أحلامه، لكنه عاد وتأمل السقف والجدران بغيظ وحقد، ثم قرر أن يعود لوطنه الجديد بشكل نهائي، بعد أن سرد كل واردة وشاردة، وكأنه أعاد نسيج حياته من جديد.

***

النافذة الرابعة

مرايــا الغضب

رنّ جرس الهاتف من جديد.. على الجانب الآخر كان أحد الفرسان القدامى ممّن عرفتهم زمن التيه والحرب في لبنان.. قال إنه يتصل بي من أوسلو، وقد حصل على رقم هاتفي من أحد المعارف في بيروت، ويرغب بنقل رساله لمن يهمه الأمر.. قال: "قبل أكثر من أسبوعين، في الساعة الخامسة مساء، وبينما كان "حسن" يهمّ بالصعود في أحد قطارات الأنفاق في أوسلو، وقع تحت عجلات القطار.. ولا يُعرف إذا كان في الأمر جريمة سياسية أو حادث انتحار.. وقد تعرّفت عليه إحدى صديقاته، وتمّ دفنه في المقبرة الإسلامية". وأقفل الخط.

عادت أجراس الماضي تقرع في أعماقي، قفزت مجموعة من أسماء الرفاق القدامى في ذاكرتي من جديد.. كثيراً ما بحثتُ في البوم الصور عن صورة تجمعني بهم، لم أجد لهم أية صورة.. كانت ملامح وجوههم في الذاكرة فقط.. وجوه قديمة وبلون الرماد.

صُوَر من الماضي اعتقدتُ أني نسيتها كلياً، استيقظت في أعماقي فجأة، وانبلجت كأشعة الشمس من وسط كتل الغيوم.. صمْتٌ جليدي اجتاحني وضغط على أنفاسي، غلّفني بوحدة قاتلة

ومزج الماضي بالحاضر.. أيقظني من متاهتي جرس الباب، تذكّرت أني على موعد مع زملاء الأمس، قمتُ بتثاقل، فتحت الباب واستقبلت الأقنعة.. أسماء بلا وجوه، انبثقت من وسط الضباب والعجز واللاإمكان، جاءت لتتجمّع حول وجبة تعارف جديدة بعد سنوات الانكسار والقهر والخيبة والعجز والموت.

كل الوجوه تحمل أسى الخريف ورؤاه، نفس الألياف نسجت أحاسيسهم، وكلهم عادوا إلى الوطن وحيدين محاصرين وغرباء.. فالح كان أولهم، قال: "أتينا لنحتفل بهزائمنا وعجزنا من جديد".. تبعه زياد، ثم دلف حازم وقال: "هذه الليلة سنكرّر أنفسنا ونستنسخها من جديد".

جلس المحاربون القدامى، بينما ظل وليد واقفاً يتأمل صورة أخي الشهيد التي تستوطن الجدار، تنبّه له زياد، فقال له: "لا تبق واقفاً كشوكة في الحلق، لا ينفع التحسّر على الماضي.. اجلس وتمدّد وارْخِ أعصابك".

جلس وليد وعيناه معلّقتين على صورة أخي الشهيد، التي أحتفظ بها حيثما رحلت وأينما حللت.. لاحقته بنظراتي ورحت أتأمل الصورة من جديد.. ذكريات قديمة نبشها وليد في ناقوس أفكاره وأفكاري.. رماد داكن اللون عصف بنا وانداح عن جمر ملتهب.. ذكريات قديمة ما زالت تلهب الذاكرة، لكنها لم تعد تئن وجعاً وتحرق الفؤاد.. وللمرة الأولى في حياتي شعرتُ أن صورة

الشهيد تطاردني، وأن وجه أخي لم يعد يمنحي ذلك الدفء الذي كنت أحسّ به في الماضي، عندما كنت أنظر إلى الصورة.. في الماضي كان الحزن يبدو كابوساً، أما اليوم فقد تحوّل إلى طفْح غضب على ملامح الوجه.

ليلتها لفّنا الصمت لدقائق معدودة ونحن نستمع لشريط الكاسيت

"أنا مش كافر.. بس المرض كافر..
أنا مش كافر..بس الجوع كافر..
أنا مش كافر.. بس الذل كافر..
لكن شو بعملّك إذا اجتمعوا فيّ كل الأشيا الكافرين"..

تلك الليلة غنّى الرفاق مع زياد الرحباني وتوجّعوا.. طالت سهرتهم وتوالدت أفكارهم، تذكّروا شبابهم وعجزهم، وسنوات أعمارهم المنكسرة التي مضت على فراقهم، قبل أن يلتقوا ثانية في سهرة خريفية، كغابة توقظها النيران.

خلع أحدهم ساعته عن معصمه وتحلّل من الوقت..

قام آخر وأنزل المرآة المعلّقة على الحائط حتى لا يرى وجهه بوضوح، قال وهو يضعها جانباً: "تداخلت الأشكال في المرايا كما يتداخل الشعر الأبيض بالشعر الأسود، وأصبحت أوراقنا صفراء تذروها الرياح على الأرض".

وسأل ثالثهم عن مذياع "بشرط ألاّ يمر مؤشّره على موجة إذاعة عربية".

أما الرابع فقال: " وكأن طيور الغربة عادت تحلّق من جديد"..

قلت مقاطعاً: "كأنك لم تسمع بقائمة الممنوعات المفروضة على طيور الوطن، ممنوع الطيران، ممنوع التحليق، ممنوع التغريد، ممنوع تخطّي الأقفاص الحديدية".

تلك الليلة، تداخلت الأضواء والألوان في أنظارهم، وطفقوا يتحدثون بكلمات مشروخة، أسماء وشخوص وأماكن بنبرة احتجاج صارخة، ثم أخذوا يهذون عن بقايا الحرب والسلم بكلمات أخرى كالألغام المدفونة في باطن الأرض، والتي قد تنفجر بدعسة قدم، أو تلقائياً بعامل التعرية، الصدأ والتآكل والإهمال.

تحدثوا أيضاً عن الهزائم التي توالت على الوطن العربي، الذي أصبح حقلاً لتجريب أحدث أنواع أسلحة الدمار الشامل، والصواريخ العابرة للقارات، وعن الكوابيس التي غرسها الغرباء في الوطن، والانقسامات والحروب الأهلية والطائفية فيما يسمى بالشرق الأوسط الجديد.

تحدثوا عن السلام وعن التطبيع واختلاف وجهات النظر، عن تدهور الاقتصاد العربي، ومعاناة الشعوب التي لم تستفد من هذا السلام، ازدادت فقراً وعرياً وتذمّراً وقهراً، وأخذت تتبادل الشتائم مثل تبادل القذائف وقصف الطائرات، بينما يقيم الفريق

الآخر المستوطنات، ويُخطّط لتدمير ما تبقّى لهذه الشعوب من إرادة وعقول، ثروات وأحلام.

تلك الليلة، لم يتفق المحاربون القدامى على الأحداث، كما لو أن كل واحد منهم كان بطلاً لقصة مختلفة، في زمن مختلف، رغم أنهم عاشوا معاً خلال فترة زمنية واحدة.. ومع ذلك فذاكرة كل منهم سجّلت شريطاً يختلف عن الآخر.. انقسموا على أنفسهم، تمرّدوا على ذواتهم، وأدلى كل منهم بِدلْوه:

- أليس مبدأ السلام الذي واصلنا النضال من أجله، يقوم على أساس إنهاء الاحتلال، وقيام دولة تقوم على أساس من العدل والحقوق الشرعية والحرية والسلام!.. فلماذا نخوض حروباً جديدة وخاسرة، طالما نستطيع تحقيق أهدافنا بالمفاوضات دون أن نهدر نقطة دم واحدة!..
- السلام الذي قاتلنا من أجله لم يمنحنا الحرية التي استشهد من أجلها الآلاف.. لم يمنع جنود الاحتلال من مطاردة أطفالنا وقتلهم.. الجوع ما زال يقاسمنا الحياة، وسجونهم ما زالت حبلى بالأسرى والمعتقلين.. السلام لم يوقف النشاطات الاستيطانية، لم يحل مشكلة اللاجئين ولا مشكلة القدس ولا الحدود ولا المياه ولا المواقع العسكرية، ولم يحقّق لنا الدولة المنشودة!.

- لأدري لماذا تمزّقت إرادة الشعوب العربية، وقبعت في زاوية مظلمة بعيداً عن النور!.. ولماذا توقّف بعضهم متردّداً في منتصف الطريق!.
- الشعوب تبلّدت عقولها، تغلّفت أحاسيسها ومشاعرها، الفقر، غلاء الأسعار، الأمراض، السجون، المعتقلات، كبت الحريات، الاغتيالات والحروب الطائفية والقبلية.. كل ذلك ابتلع حاضرها ومزّق إرادتها، وقبعت تنتظر انبعاث المقاتلين من اليأس الذي أصابهم بعد كل هذه الهزائم.

حوار طويل دار تلك الليلة.. شعرتُ أن بعض هؤلاء الرجال تحوّل إلى جيل من المثقفين خائب ومهزوم من الداخل، عاشوا مرحلة الهزائم والحروب والمذابح.. كلماتهم صارت فقاعات هوائية، واتخذت أحلامهم شكل اليأس، وشكل النقد والشتائم، يعيشون وفي دواخلهم نفايات مئات السنين من القهر والخيبة، ويعتقدون أن كل المشاريع العربية لا تتجاوز صفحة في كتاب، يرون العلّة في الواقع، وليس في أنماط فهمهم أو في طريقة تعاملهم مع الحقائق.. كوّنوا مجموعات لتفسير الواقع لا للتأثير فيه، وتوضيح ما وصلت إليه المرحلة..

قطع أحدهم حبل أفكاري وقال: "السلام في نظر الآخرين يعني أن يُكمّم العرب أفواههم، وتُقيّد أياديهم بالأغلال، ويقبلوا ما يُفرض عليهم من الطرف الآخر.. سلام مفروض بالقوة من جانب واحد".

وقال آخر: "أنا لا أتصوّر سلاماً في المنطقة من غير أن يعمل الجميع معاً، ويكونوا قوّة واحدة تحمي هذا السلام وتدافع عن حقوق الشعب وحدود الوطن".

أما الثالث فقال: "السلام في نظر المقاتلين خيار استراتيجي لا رجعة عنه.. يعني الأمن وحق الشعب في الحرية وتقرير المصير، والعيش بكرامة في ظل دولة ديمقراطية"..

- ياه، شبعنا من الكلام عن السلام. قال رابعهم، وأضاف يخاطبني: سمعتُ أنك تستعد للعودة إلى أرض الوطن!.
- إجازتي قاربت على الانتهاء، ومهما تأخر الوقت لا بُدّ من العودة. قلت.
- طبعاً لا بُدّ من العودة عاجلاً أو آجلاً، فالأرض لا يحميها إلا رجالها، ولا يحرثها غير عجولها.
- شُرُم بُرُم، مَن يسمع هذا الكلام يعتقد أنكم حرّرتم كل شبر من أرض الوطن.
- الواقع المفروض علينا أن نرضى ببقايا الحلم، نُلملم أنفسنا بعد سنوات الضياع والشتات والظلم، ونقيم دولتنا على كل شبر تحرّر..
- أنت متفائل جداً يا صديقي..
- مِن حقي التفاؤل وأنا على أرض وطني، وأحلم بإقامة الدولة المنشودة.

- المقاومة وحدها هي القادرة على مخاطبة العدو وغطرسته.. انظر كيف تنتقل نار الجهاد داخل الوطن المحتل من صدر إلى صدر، ومن ساعد إلى آخر!..
- المعركة مع العدو طويلة ومستمرة، ومهمتنا أن نصمد فوق الأرض، نشكّل بأجسادنا سدوداً للدفاع عن كرامة الأمة وشرفها، ونواصل العمل لتحقيق ما قاتلنا من أجله.. فنحن اليوم أقرب الى مقارعة العدو من أي وقت مضى.

زفر وليد، وتمنى لو يستطيع العودة هو الآخر ليقف مع الصامدين، ويُكحّل عينيه بتراب الوطن، ثم تأوه وأضاف:

- هذا أفضل كلام سمعته في أردأ عصر.

***

تلك الليلة، صال رفاق السلاح المتقاعدين وجالوا في أحاديثهم المتنوّعة، تحدثوا بحماسة، تناقضوا واتّهم بعضهم بعضاً، وأحالوا الأسباب التي أوصلتهم لهذه المرحلة إلى المسؤولين والقوى العالمية، والخذلان الذي عاشوه، وإلى الخيبات التي توالت عليهم.. تذكّروا جبرا ابراهيم جبرا وروايته "البحث عن وليد مسعود"، وعجزوا عن فك لغز اختفائه.. تذكروا غسان كنفاني وروايته "رجال في الشمس"، وتساءلوا مع سائق سيارته أبو الخيزران "لماذا لم يدقّوا جدران الخزان!؟".. تذكروا ما كُتب في "أم سعد" و"عائد إلى حيفا"، و "ما تبقّى لكم".. ولم يصلوا إلى نتيجة.. وأخيراً تذكروا أنهم يعيشون التاريخ الهجري ويعتقدون

أنه الميلادي، إذ لا يمكن لفارس عاش في القرن الخامس عشر أن يكون فارساً في نهاية القرن الحادي والعشرين.

غرقوا في الصمت ساعة، ثم عادوا وتحدثوا عن الماضي الذي حاصرهم وشكّل حاضرهم، انغرس في أعماقهم، وبات الهواء الذي يتنفسونه.. قال حازم:

- أشعر أن هذا العجز حدث لنا قبل ثلاثين عاماً، قبل خمسين عاماً، قبل مئات الأعوام.. وتكرّر هذه الليلة..

تثاءب أحدهم وحاول استعادة نشاطه، أشعل آخر سيجارة من علبته، نفث دخانها من فمه ومنخريه وقال:

- ما رأيكم أن نبدأ من جديد، نتجدّد ونحتفل بأننا ما زلنا على قيد الحياة!.
- ولماذا لا نحتفل بطقوس عجزنا وموتنا على ذمة الحياة!..
- لا فرق، العدو أيضاً احتفل باقامة دولته وسط الجرح العربي الكبير، كل واحد يحتفل بطريقته الخاصة، ويرقص وينام على "الكامب" الذي أعجبه.
- غريب حقاً أمر السياسيين في الوطن العربي، يحتفلون بهزائمهم كما يحتفلون بانتصاراتهم وأعيادهم الوطنية والقومية، لا يتركون هزيمة أو مناسبة إلاّ ويحتفلون بها، يملكون قدرة عجيبة على خلق أساليب لتحويل الهزائم إلى انتصارات، وكأن لا هزيمة حدثت.
- يبدو أن كلمة "هزيمة" لا توجد في قواميسهم.

- أنت تبالغ فيما تقول، ليس الجميع على هذه الدرجة!.
- سأضرب لك مثلاً، أثناء وجودنا في لبنان، قام جيش الاحتلال وغزا جنوب لبنان، دمّر وقتل وهجّر ثم انسحب، واحتفل بالنصر ونجاح العملية، والغريب أن لبنان احتفل بالنصر أيضاً لخروج القوات الغازية من أراضيه.. يومئذٍ وقفتُ مذهولاً، حائراً ومندهشاً، ولم أعرف من الذي انتصر حقاً في تلك الجولة!.
- ولماذا تستهلك قواك العقلية بالتفكير كثيراً، نحن الذين انتصرنا بخروجنا من لبنان على قيد الحياة.
- غريب حقاً، المفروض فيمن فشلوا أن يخلوا الساحة لغيرهم.
- لا ليس غريباً، إنه عجيب.
- كفاكم سوداوية لا مبرّر لها، فقد قدّمت هذه الأمة عشرات الآلاف من الشهداء والمناضلين جيلاً بعد جيل..
- ومن قال لك أننا نسينا الشهداء، إنهم ما زالوا في الذاكرة، لن ننساهم كما لن ننسى مذابح دير ياسين وغزة وقبية وكفر قاسم ومدرسة بحر البقر وحريق المسجد الأقصى ومذبحة الحرم الإبراهيمي وصبرا وشاتيلا وملجأ العامرية ومذبحة الأطفال في قانا وغيرها..
- شُرُم بُرُم، لم يبق إلاّ أن تُذكّرنا بانتصاراتنا عام النكبة وحزيران والحروب الأهلية في الوطن العربي، وحرب الخليج!.

- ولماذا أُذكّرك بالماضي، انظر إلى الحاضر، أنظر كيف جرّدت أمريكا العراق من أبسط متطلبات حياة شعبه، وقتلت مئات الآلاف من المدنيين العُزّل، بينما تـهيل ملايين الدولارات على إسرائيل بحجة الدفاع عن أمنها القومي.. وتُزوّدها بأحدث أنواع الأسلحة لقتل أبناء شعبنا في الوطن والخارج، ومع ذلك يهرول الكثير من العرب لنيل رضاها.. إننا نعيش حالة انعدام توازن في حلقة مفقودة، ولا نعرف كيفية الخروج منها!.
- تعال معي، واخرج من جلدك.
- لا، أنت تعال معي لنخرج من عنق زجاجة العالم العربي.
- الأفضل أن تخرج من الحياة كلها مرة واحدة، وترتاح.
- لاحظوا أن وجودنا على أرض الوطن جذّر هويتنا الفلسطينية، وأعادنا إلى الحضور العربي والعالمي من جديد.
- نحن لم نغب يوماً واحداً عن الحضور.
- أخشى أن يذوب الشعب الفلسطيني في متاهات العالم العربي والحلول المفروضة عليه بالقوة.
- لا تخْشَ شيئاً من هذا القبيل، فالأرض الفلسطينية ما زالت تتكلم عربي، ووجودنا عليها يُبقي القضية حيّة دائماً حتى تتحقق أحلامنا..
- إسرائيل جسم غريب وسط الأمة العربية، ومهما طال الزمن لا بُدّ أن يذوب هذا الجسم ويتلاشى.

- لكن الكثير من الحكومات العربية تقبّلت هذا الجسم.
- المهم الشعوب، هل تقبل به أم لا!..
- لا تنْسوا أن حبة فاكهة تالفة تُتلف صندوقاً بأكمله، كما السوس ينخر الخشب.
- هل سمعتم عن آخر التنبؤات الفلكية لهذا العام!، لقد طالعتنا إحدى الصحف الأسبوعية أن أحد المغاربة تنبأ بانهيار إسرائيل من الداخل وليس من الخارج.
- أنتم تثيرون الاكتئاب في النفس، لماذا كل هذه الجُمل المخنوقة والتشاؤم!، أنتم هزيمة جديدة، اخرجوا من التاريخ وافسحوا المجال لغيركم يصنعه، الشباب المتجدّد أجيال أمل وبواعث فأل، هم الذين يصنعون التاريخ، ويحققون النصر الذي عجزتم عن تحقيقه..
- عجزتم! أم عجزنا!.
- أنت معنا أم علينا!.
- ونسيت أننا العقول المفكّرة!..
- أنتم العقول المهزومة، اشربوا وناموا حتى تنسوا ماضيكم وحاضركم.
- شُرُم بُرُم، يكفيك هذياناً هذه الليلة، أنت فقدت وعيك تماماً.
- لا، أنا في كامل قواي العقلية، أنت تذكّرت الهزائم والمذابح فقط، ونسيت الشهداء الذين ماتوا في الساحات العامة وفي قلب الحدث!.

- كنا وسط الحدث ووسط المعارك، ولم نمت.
- يحيى عياش* استشهد ولم ينهزم مثلنا، ظلّ يكافح يناضل، يراوغ جنود الأعداء ويتخفّى عن أعينهم بين الشجر والسُّحُب والناس والعصافير ونسمات الهواء، بينما أنتم تحتجبون في الظلام وراء الأقنعة.
- شُرُم بُرُم، نسيت أن تخبرنا عن سالومي التي باعت يحيى وأمرت بتفجير رأسه أثناء مكالمة هاتفية، نسيت أن تخبرنا كيف تقاوم تكنولوجيّتهم الحديثة والمتقدّمة.
- لا، ليست التكنولوجيا، الخيانة هي الأصل، يهوذا باع المسيح قبله وسلّمه.. إنه الشر، عادة متأصلة في الإنسان، ليس معنى أن يقتل قابيل هابيل أن يفنى العالم ويندثر، العالم يتجدّد، ويحيى كان يُمثّل شهداء المقاومة وشهداء الأمة العربية الحية، عصفوراً وسط اللهب كان.
- صحيح والله، عالم متناقض، راية المقاومة لم تخب يوماً ولم تسقط أبداً.. ما زالت نوافذ الغضب مفتوحة وأجيال المقاومة تتعاقب..
- رجال المقاومة هم من رفع راية النور في ظلام الأمة، وبعث الحياة في جسدها النائم، هل نسيتم تضحياتهم!.

* يحيى عياش ويُلقّب بالمهندس، مناضل وقيادي فلسطيني، اغتالته اسرائيل عام ١٩٩٦م في غزة باستخدام عبوة ناسفة زُرعت في هاتف نقال كان يستعمله بين وقت وآخر.

- مَن قال لك أننا نسينا أشاوس الأمة!.. إنهم يعيشون في أعيننا، لكن "مكانك قف"، أوقف حالنا ونزع سلاحنا..
- الغريب أننا رضينا بالأمر المفروض علينا، ولم نصْحُ إلا في وقت متأخر.
- هذه صحوة الموت، الإجهاض الأخير.
- أجيال الغضب قادمون عاجلاً أم آجلاً كالطوفان، والمقاومة هي نداء الحياة الأخير للأمة العربية.
- غريب حقاً هذا الوطن الذي يجمع المتناقضات، يمنحك حرية الحياة، ويقطع عنك الماء والغذاء والدواء، ويمنعك من حرية التعبير.. يدفعك لتطلق رصاصة على رأسك بحرّيتك وبملء إرادتك، كل شيء يبدو غريباً وعجيباً.
- لا عجيب ولا غريب، الغريب أننا لم نعد نملك ما نأكله أو نشربه في آخر الليل.
- هذه مشكلة حقاً.
- هذه ليست مشكلة، هذا ابتلاء.
- هذه خيانة.
- هذه مؤامرة حيكت بِلَيْل.
- هذه هزيمة جديدة..
- لا، هذه انتفاضة جديدة، صحوة وصرخة أمل لميلاد يوم جديد.

***

السـيرة الذاتيـة للمؤلف

اسم الشهرة: إبراهيم عوض الله الفقيه

- قاص وروائي وباحث
- مواليد صوبـا / القدس / عام ١٩٤٦ م .
- حصل على ليسانس في الآداب (قسم اللغة العربية) .
- عمل مدرساً لمدة عشرة أعوام .
- يكتب القصة القصيرة والرواية.
- لا يعنيه ملاحقة التيارات الرائجة بقدر ما يعنيه الوجود على الساحة الأدبية بأعمال قوية متميزة.
- لا يكتب إلا إذا شعر أن لديه شيئاً جديداً يريد أن يقوله.
- عضو رابطة الكتاب الأردنيين.
- عضو الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب.
- عضو اتحاد كتاب آسيا وإفريقيا.
- عضو اتحاد كتاب أمريكا اللاتينية.
- نشر العديد من المقالات والقصص القصيرة في الصحف والمجلات المحلية والعربية..

مؤلفات إبراهيم الفقيه

- **الروايات:**

١. جذور في طريق التحرير- دار الزهراء، بيروت عام ١٩٧٤م.
٢. الهذيان – دار الزهراء، بيروت عام ١٩٧٥م .
٣. الصمت المعبر – دار عمار، عمان ١٩٩٢م.
٤. ما زال للصبار روح، دار النهضة، عمان ١٩٩٣م.
٥. الخريف واغتيال أحلام – دار النهضة، عمان ١٩٩٦م.
٦. الأرض الحافية- دار الينابيع، عمان ١٩٩٩م.
٧. نوافذ الغضب – دار الحرية، عمان ٢٠٠١م .
٨. ظمأ السنابل – دار اليازوري، عمان ٢٠٠٧م .
٩. أحلام يوسف – دار فضاءات، عمان ٢٠١١م
١٠. قناديل الروح – دار فضاءات، عمان ٢٠١٣م
١١. ظلال العمر– رواية – الآن ناشرون وموزعون– عمان ٢٠١٨م

- **مجموعات قصصية :**

١. القربان – دار عمار، عمان ١٩٩٠م
٢. فرسان السراب – دار أمواج، عمان ٢٠١٠م

- **تاريخ :**

١. صوبا، إحدى قرى فلسطين المدمرة عام ١٩٤٨م في منطقة القدس – تاريخ وطن وحياة قرية – الطبعة الأولى عمان ١٩٩٦م

====

إبراهيم الفقيه

البريد الإلكتروني: faqeh46@hotmail.com

موقع صوبا: www.subaa.com